

فصول

مختارات

عبد المنان

٩٠

إدوارد الخراط

ساعات الكبرياء



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٩٠)



الجمعية المصرية العامة للمكتبات

١٩٩٤

DL

رئيس مجلس الإدارة
ا. د. سمير سرحان

رئيس التحرير
سامي خشبة

نائب رئيس التحرير
إبراهيم أصلان

مدير التحرير
خيرى عبد الجواد

المشرف الفنى
صبرى عبد الواحد

الغلاف للفنان
عماد حليم

ساعات الحِكْمِ بَرِيءِ

إدوار الخراط

مقدمة

صوت صارخ ٠٠ (فى الشوارع) ينادى باسمك

من أروع ما كتب فى قصصنا المصرى القصير ، قصة قادرة على اجتياح المعنى الميتافيزيقى الذى جرؤت عليه دون أن تغادر أرض الواقع التفصيلي . قصة تمارس الرمز دون الاسفاف المعروف الشائع فى أدبنا المعاصر بل ترفعه الى ممارسة حية مستمرة تتماسك فيها عناصر الرمز نفسه مع عناصر التجربة الحية المباشرة ودون أن يتساهل الفنان مع قواعده الفنية العامة أو أن تهتز أركان جملته أو تغلب منه الجميل والتعبيرات فى هذا التحلل المألوف الذى نعرفه فيما يسمى القصص الرمزي . ولقد توصلت الى هذه الاحكام بعد نظر مطول فى القصة التى يختتم بها الفنان مجموعته لأنها كانت مشكلة نقدية شغلتنى وقتنا أطول مما شغلتنى أى من القصص الأخرى فى المجموعة . (فهى تفرض عليك الشعور بأنها « كلمة أخيرة » خطيرة يعرض فيها الفنان نفسه ويتعرض بها كما لم يفعل من قبل فى مجموعة الساعات بل هو يذكر اسمه فى آخرها وكأنما هو يريد أن يوقع على لوحة تمت ، والاحساس بأنه « قد أكمل ») الذى يريد أن ينقله الفنان هو فى ذاته معنى أساسى من المعانى التى يجب أن يكشف عنها النقاد . فليس مجيء القصة فى آخر المجموعة مجرد صدفة أو مجرد ترتيب تاريخى حتى ولو كان هذا الترتيب

واقعا • ففي الخاتمة يريد الفنان أن يقول كلمة جديدة وأخيرة هي خلاصة ما قيل قبل ذلك وهي في الآن نفسه رفع له الى مستوى جديد من التعبير والمعيشة • ولقد أحسست في المتابعة النقدية لقصص المجموعة ان هناك فارقا ما بين قصص المجموعة كلها وبين القصتين الأخيرتين : « محطة السكك الحديدية » و « فى الشوارع » • وأن شيئا متميزا خاصا فى كل منهما يخلق مسافة معينة بينهما وبين قصص المجموعة ، وظللت أتساءل وأراجع ما كتبت فى المجموعة من قبل حتى انكسرت الغربة وان ظلت المسافة • وهنا أضاء المعنى وظهرت القيمة الحقيقية للقصّة كواحدة من أروع شواهد التعبير فى أدبنا عن الوقفة الميتافيزيقية أمام الموت – بأى معنى – الذى يفترس الحياة كالوحش وأصبحت القصّة فى الآن نفسه كما قلت تكليلا لتجارب القصص السابقة وتأكيدا لها وكأنها التصور الكلى الذى يعقب الشواهد أو المفهوم المجرد الذى تندرج تحته جزئيات التجارب فى « ساعات الكبرياء » •

على ان هذا المستوى المجرد للقصّة الأخيرة بالنسبة لقصص المجموعة يقدم لنا نقطتين أساسيتين أو على وجه أصح درسين هامين للأدب والنقد • أما الأولى فتتعلق بأن التجريد لا يمس خصائص الجملة التعبيرية عند الفنان ولا يمس وسائل الفنان الخاصة المتميزة فى طرق وصفه أو نظريته للموضوع أو حسبه أفعاله أو حتى استعماله للكلمات العامة الخاصة الحميمة • • والموقف الميتافيزيقى الفنى هو الموقف الذى يحتفظ فيه الفنان بكل خصائص تعبيره المحسوس والا فقد صغته الفنية وحرم عمله من مادة ودم حياته • وتوصل الفنان الى هذا الموقف علامة من علامات النضج الحقيقية والسيطرة على رسالته وهو يحتاج من الأديب والقارئ الى نظر طويل وتحليل دقيق خاصة وقد شاعت جرأة على المعانى الميتافيزيقية فى أدبنا المعاصر فى غير موضعها نتيجة للتأثر بالأدب الغربى ومدارسه ويمارسها البعض دون أن تتوفر لهم امكانيات الحياة

والتنفس والعمل فى الجو المتنافيزقى • أما فنان « فى الشوارع » فهو يمارس قدراته كاملة على الوصف المفصل الذى يثبت المناظر فى حسية كاملة متكاملة تجتأب المنظور حتى يفرغ أو يوجد ويصيح طاقة متدفقة فى تيار واحد للتجربة • وقد يكفى أن أشير هنا - كى يراجعها القارئ - الى تلك الفقرات التى يصف فيها الفنان ، بعمله وطريقته المعتادة زحمة الاوتوبيس التى تحولت الى نوع من العجينة الثابتة الرخية ، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود « أو وصف عربة التين الشوكى » هناك وحدها ، متميزة قاطعة الحواف • • أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء • • وأكوام الحبوب • • نباتات عصية وكثيفة الغنى ، لا تبالى بتجديدها لا ترد عليه • • كل خصائص الجملة والتعبير موجودة حتى تلك الیقظة للجسد والسوى المستمر بما فى الانوثة وما فى الألوان من تعبير وجودى (انثولوجى) • • فالزهور التى يحملها الصبى على الدراجة هى زهور آئيثة « مكتنزة الجسد طرية غضة ، يتدفق غنى ألوانها فى النور ، فى لدونة لحم حى وثير • • ملفوفة الى بعضها بخيوط خضراء من أعواد نبات ، أشرطة حمالات تحز فى بضاضة البياض وفى ندوة الألوان الوردية وتحدى الحمرة اليانعة وكثافة الزرقة المليئة بالعصير • • كأنما غرق فى لحظة فى طيات جسد امرأة باذخة فى لحظة الحرارة الأخيرة البناعة » (ص ٩١) • وليس هنا ما يدعو الى الاقتصار على هذه النماذج من الوصف أو المناظر ، فالقصة مليئة تستثير عالم القاهرة المعاصر كله وتتعدد فيها المناظر الصغيرة والكبيرة تعددا كثيرا • ولكنه مع ذلك تعيد فريده بالنسبة لتعدد المناظر والوصف فى القصص الأخرى • فهذه مناظر تتلاحق بقدر الاستقلال لكل منها ، اعتمادا على أن يقوم المعنى العام للقصة أو الرمز المستخدم بها بشدها كلها بعضها الى البعض الآخر فى رحلة مع الفنان فى الشوارع ، فعلى حين تجد المناظر والوصف ثابتا وتتوالد من بعضها فى القصص الأخرى داخل اطار محكوم مقدما بالبناء التشبيهي

للعمل ، نجدها فى هذه القصة الأخيرة متلاحقة عليك أن تتابعها أنت بدقة وأن تلهث وراءها وهى تتلاحق أمامك حتى لا يضل منك خيطها ومعناها .

وينقلنا هذا الى الدرس الثانى وهو المتعلق بالرمز ، وقد يكون هذا الحديث صعبا على القارئ اذا لم يكن قد قرأ القصة ، بل لقد يكون صعبا عليه حتى اذا قرأها قراءة عارضة . ولكنه مسلك وعمر على أية حال علينا أن نجهد فيه لنتبين طريقة وخطوات تكوين الرمز عند الفنان وانعكاسه فى التجربة الفنية المصنوع منها العمل ، فهذه إذن محاولة لتعقب خطوات الخلق الفنى وهو يجاهد للامساك بالمعنى الذى يبدأ غامضا حتى على الفنان ليزداد مع العمل وضوحا وتطلبا . ومثل هذا التتبع قد يختلف فيه مع القارئ الذى قد يريد أو قد يستطيع أن يسلك طريقا آخر للفهم أو التذوق ، وهذا حق له لا جدال فيه . بل قد يختلف فيه مع الفنان نفسه ، وإن كنت أعتقد أن الخلاف فى هذه الحالة سيظل على جزئيات من المعانى الجزئية أو على بعض دلالات الصور المنفردة دون أن يتعلق بالمنحنى العام لعملية الخلق أو بالمعنى الكلى للعمل .

وعلى الرغم من اننى قد بادرت فى مطلع هذا الحديث بالإشارة الى الموت على أنه تحديد للرمز فى القصة ، فاننى لم أقصد أن يكون هذا التحديد ميكانيكيا أو حسابيا بسيطا ، فسوف نستقصى معا كيف يتكون الرمز وخطوات صناعته وأنواع المعانى التى يتلبسها مع استمرار عملية الخلق . ولكننى قصدت أساسا ان اصادر مقدما على نفى احتمال فهم القصة فهما يشير الى معان اجتماعية أو ان يفهم الرمز على أنه اشارة لآلم أو توجع سياسى أو تاريخى ، فالقصة فى نظرى معالجة للمعنى الميتافيزيقى الشامل لتجربة الأبطال كلها فى قصص الساعات ، وهو تلخيص لمواقفهم السابقة المقررة فى أواخر القصص ، وهنا ما أرجو أن يتضح من المعالجة التفصيلية لصناعة القصة وتطور عملية الخلق والرمز فيها .

تحدث القصة فى شوارع القاهرة المعاصرة خلال يوم واحد يبدأ بوقفة أمام المرأة للحلاقة فى البيت ثم رحلة فى الشوارع فى شبه مطاردة أو صراع مع وحش غير محدد أو مسمى ، حتى تنتهى بمحاولة مجدة للرجوع الى البيت الذى « يبدو أنه بعيد » * وتحدث الأحداث فى « نور الصبح » الذى هو أقرب الى الصبح الباكر وما يلبث بعده حادثة لاوتوبيس كاد أن يقع فى النيل أن يتغير الى « نور الصبح العادى الثقيل » الذى يقترب مع الرحلة فى الشوارع الى « وقلة الظهيرة » ثم نجلس فى « همود الظهيرة » مقربين من العصر حتى نسلك « فى المغرب البرونزى الصدى القائم الخضرة » ونصل الى الحلم المجهد الذى يسمع فيه الفنان من ينادى باسمه الحقيقى « فى آخر نور المساء » دون أن نصل الى البيت * وقد كان من الممكن أن نقسم القصة الى حلقات لتحليلها حسب تغاير نور النهار ، ولكن النور – فى الحقيقة – لا يصنع الا اليوم من الحياة الذى قد يكون كل يوم ، دون أن يقربنا بذاته من الوحش أو أن يطلعنا على الصراع الذى يعرف الفنان أن عليه أن يعد عدته له دون أن « يعرف أين يحدث ولا كيف يخرج منه » *

ولكننا قد نستطيع أن نقسم القصة داخل أوقات النور الى مراحل سبع حسب ما استطعت أن أميزه من مراحل تشكل الوحش وتحدد الصراع وتكشف المعنى واستكمالها * وعلى الرغم من تعاقب هذه المراحل الا أنها لا تتلاحق تلاحق القصص ولكنها تتجمع تجمع البناء الموسيقى الذى تتكرر فيه النفحات وتتأزر متغيرة متفاوتة العنق والاهجاء حادثة فى الوقت دون أن تخلق الزمن أو تفترضه *

الاثرة البوليسية والقلق الداخلى :

فى البداية نواجه مواجهة أقرب الى ما يحدث فى الروايات البوليسية بتوقع غريب وعلان خفى عن وحش فى المدينة * ويصاحب هذا التوقع نغمة خاصة فردية من القلق والتأمل فى تجارب من

واجهوا الوحش أو من يظن أن ذلك قد حدث لهم • البداية اذن
منقسمة الى هذين القسمين من القاء التوقع فى الخارج وتحسس
القلق فى الداخل - وهذا الجزء الخاص بالتوقع فيه الكثير من
الجمجمة التى استخدمها الفنان نفسه لابتعاث عمله دون أن يكون
قد استكمل فيه بعد • ولهذا تقع فيها معان فجأة أو مبتسرة يستبعضها
الفنان بعد ذلك فى بقية العمل وبعد ان تؤدى دورها فى خلق
التوقع • ونظرا لأن هذه المعانى كان من الممكن أن تمثل منزلقا للفنان
صانه الفن منه بعد ذلك ، فانها تظل تمثل أجزاء لا ضرورة مطلقة
لها وكان من الممكن الاستغناء عنها • وهذه المعانى تتمثل فى جمل
مثل : « سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب
حقيقة الأمر ، ولكنها تحرص على أن يكون ذلك من غير اعلان ، حتى
يأتى اليوم المشهود » • فليس فى القصة دور تال لقوات الأمن وليس
هناك يوم مشهود قادم • بل ان تصور « يوم مشهود » يتم فيه
التغلب على الوحش هو تصور غير قائم وغير ممكن فى بقية العمل •
ان الجملة ، كما قلت ، منزلق أحدثته الرغبة فى استخدام الاثارة
البوليسية التى ليس لها مبرر حقيقى، ومن هذا النوع أيضا الجملة •
« صحيح انه التقى بمحض الصدفة ، باثنين أو ثلاثة من معارفه
القدامى ، وكانت الأخبار قد ترامت اليه أنه اعترضهم فى الشارع ،
وان شيئا ما قد حدث » • والمزلق هنا هو فى ذكر العدد اثنين
أو ثلاثة ، فليس ما يدعو لقصور هذه القلة فيمن تعرض لهم الوحش
حسبما تتطلب بقية القصة • وفيما علما هاتين السقطتين فى نشأة
الاثارة فانها توفق فى خلق الشعور المطلوب من أن المدينة فيها وحش
خفى خطير •

ولكن الذى يخلق حقا الاثارة هو القلق الذى يهدد النفس من
الداخل والوصف النفسى لتجارب الآخرين الذين تعرضوا للوحش
وصور المدينة المزدهمة التى يقع فيها اللقاء الغريب معه • وهذه
النغمة الثانية المركبة هى التى تضع البطل وهو الفنان المعانى ،

تضع العلاقة الميتافيزيقية مع الوحش ، كما تضع المكان أى الشوارع التى ستحدث فيها القصة . ما أغرب ان تضع يدك فى بذرة العمل الفنى وهى تستعد للفتحة حاملة كل خصائص النبات الناضج .

يبدأ العمل كلماته الأولى بالعينين اللتين تنظران الى العينين « قاسيتين معاديتين يعرفهما طول عمره تواجهاً بصمت ، من غير لغة ولا يريد أن يرد عليهما . هذه الغربة الغريبة عن الذات ، هذا التوقف أو العجز عن الاتصال حتى بين الانسان ونفسه هل هما الوحش الذى يفترس المرء ؟ انه سمة من سمات الوحش ولكنه ليس هو ، فورا العينين « هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل » . انه قلق مثل جلد الوجه « ينغمه ويصقله ويغطيه » ويكحته بالمنشفة « كانما يريد أن يمحو شيئاً لا يرى ولا يسمى » . ولكنه لا يستطيع أن يذيقه أو ينسأه أو أن يتجاهله « بل يقبله ولكن يدفعه بعيداً تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شيء » . هذا هو الوضع الانسانى أمام الوحش الذى هو أقرب للمرء من جلد الوجه ، لا يستطيع المرء أن يواجهه الا بالرجاء « والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شيء » . ولكنه قد حدث للآخرين حتى وان كانوا معارف قدامى ، فهل حقاً صحيح ان من الأولى أن « لا يعتقد أن الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة » ؟ حقاً ان أولئك الذين حدث لهم هذا اللقاء أو شاع عنهم ذلك « يظهرون بمظهر طبيعى جداً » . بل ويرغمك هذا المظهر مع المعرفة ان تسلم عليهم « بحرارة أكثر قليلاً - قليلاً جداً - من المعتاد » . ولكن هذا المظهر الطبيعى وتلك الحرارة الأكثر قليلاً من المعتاد لا يؤكدان الا فقدان الاتصال والغربة ولا يكشفان الا عن غموض وسرية تلك التجربة التى « يطوون عليها نظرتهم المرتدة الى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة » . هل هم « يستحقون ما وقع لهم على أية حال » ؟ هل هم مسؤولون بالتصدي

والخروج الى الوحش عن ذلك ؟ ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ وماذا يمكن أن يحدث - على أى حال - فى السوارع ؟ ..

وهكذا تتحدد كل أسئلة القصة الأساسية حول القلق المعجون مع الجلد وحول غربة الذات عن نفسها وانطواء الآخرين على أنفسهم وعلى سرهم ، ثم هذا السؤال - الذى يجدد القلق كما يجدد الرجاء والتعلل - عن مسئولية الفرد أو الآخرين عما يحدث لهم من لقاء مع الوحش .. « فى السوارع » .. « بين الاوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة بين مواكب الناس المسمومة المختلطة المتشابكة .. بين عساكر المرور .. وجزر البلاط الضيقة .. وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة وعربات الفاكهة .. » بين كل هذا وهو العالم كله وقاهرة القصة ، تلقى الأسئلة الأساسية كلها ، متجمعة فى العينين اللتين تطلان على نفسيهما فى المرأة وتسلان السؤال البسيط الساذج الذى يحرك ويعطيها نموها القادم .

« ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم ، ان يكون قد فعل بهم ، فى السوارع وفى وقبة الشمس العارية البديثة وفوانيس النور واعلانات النيون ؟ » ..

وتنتهى الحركة الأولى من القصة والبطل « يريد أن يمحو شيئا لا يرى ولا يمحي » هو القلق والوحش والقصة القادمة .

امتلاك القسوة على الرمز :

وكما بدأت الحركة الأولى من القصة بعينين صامتتين فى المرأة تبدأ الحركة الثانية بأوتوبيس غاص بالناس ينطلق « صامتا على حافة النيل » ولكن العينين كانتا قاسيتين معاديتين تبعثان القلق . أما الاوتوبيس فكان يحمل زحمة « قد تحولت الآن الى نوع من العجينة الثابتة .. وأمنت لحظة من لجاجة شدة وجذب لا ينتهى » وجدرائه « توحى بالاطمئنان فى قوتها الذاهبة الى غرضها لا تحيد » والناس جميعا بداخله قد استقروا « لحظة الى نوع من الرضا والقبول

— ما أندره — بين الناس بعضهم البعض » • بل ان صاحب العينين نفسه « كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة بل مريحة وهواء النيل القادم عليه من شباك الأوتوبيس » ينفحه • • « بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى » •

هذا الخارج للقاء الوحش المتصدى للقاءه دون أن يعترف قد آوى لحظلة « الى ذخر من التعلات » مثله مثل بقية الناس في الأوتوبيس ، وعلى الرغم من أن هناك ما يشعرك بأن هذه النغمة من الراحة والتفاؤل خطيرة حرجة سواء من جلسته التي هي « في وضع حرج » أو احساسه بأن التعلات والاطمئنان الى لون من الراحة هي مثل « ذكاء الحيون الذي يريد أن يتشبث بالحافة ، ولا يقع » على الرغم من ذلك تتصاعد النغمة الى قمة « كأنها صريرة » وتختتم « برؤية لمركب وحيد في النيل. في وسط براح الماء » و « تحت نور الصبح وتراوح فغبات الخضرة وقتامة مياه النيل » شراع أبيض مفرد • • روح قوية عريضة الجناح ، تشق طريقها بتوق وجهه الى السماء الباردة الزرقة يحملها جسم هزيل خشبي ضامر • • وسط تيه شاسع • • « أهو وجد الصوفي الذي يتوصل الى رؤية أم وهم الغافل المخلوع أم هي طبيعة البشر على أية حال » ، روح قوية يحملها جسم هزيل وسط تيه شاسع •

ووسط بطانة على الشبط من مناظر الخضرة المطهرة « المفسولة من سوقية الحسابات العارية » تتوقف النغمة فجأة بصرخة من القرامل « ناقية كاشطة تنوح » • ولقد وقع المحذور وبدأ تشكل الوحش ، والحيوان الحي سواء كان انسانا أو أوتوبيسا من الناس يتشبث بالحافة يريد أن يقع ويحتسى « في حمى البحث عن الخلاص واليقظة الحادة » يريد أن يصعد مثل السجلات « على حرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان » • لقد كاد الأوتوبيس أن يقع في النيل وهو يتفادى سيارة نقل تحمل أعواد الحديد الصلىء الباقي • ان الحادث يقع ولا يقع ، والحادث هو ما كان متوقعا وهو غيره ، انها هزة

من صلب القلق القديم في المرأة ولكنها لا توصلنا مباشرة الى الوحش بل تكتفي بأن تطلق نغمات الوصف العنيف السريع الذي يستحيل فيه « تراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل » الى « ثقلبات متعاقبة من الأرض والماء والأسفلت والطين المتماسك » وشهقات الأوتوبيس المتقلبة الزئير وهو يزوم في هدير صور ممثلي « نغمات يرتفع فيها اللون والصوت الى حد عال من الضجيج ينتهي الى منظر جامد على هذا الحرف بين الحياة والموت ، بين اللقاء والتوقع .. »

وتختتم الحركة الثانية للقصة في لوحة ساكنة كأنها سؤال قاطع تصوغه عربية تين شوكي تقف مضادة للموكب السارى على النيل « هناك وحدها متميزة قاطعة الحواف » فتعيد القلق الذي كان « نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل » ويتجدد أيضا نفس التساؤل عن التواصل والفهم المتبادل وغربة الفرد حتى على نفسه ليتكلم مع « أكوام الحبوب الشوكية ، نباتات عصية وكثيفة الغنى لا تبالى ، تحديها لا رد عليه » . فهل هذا التحدي هو نفس ما كان في العينين في المرأة عندما كان « لا يريد أن يرد عليها » ؟ لقد أصبح المعنى من الوضوح والقطع حتى كاد أن يكون شائكا اذا أدمنت النظر اليه . وعند ذاك يوهض على صفحة الماء بجانب الحبوب شعاع « لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه » .

وهكذا لا ينتهي القسم الثاني من القصة الا وقد تملك الفنان أدواته الرمزية واستكمل قدرته على أن يحيل المنظر والحدث الى طاقة ذات دلالة تعبيرية تشارك في دلالة الرمز ك تجربة وتصور . وسوف يظل الطريق الى تملك هذه القدرة عند الفنان سرا لا يستباح تماما مهما بالغنا في تعقبه . لانه في كل مرة يقطعه الفنان فانما يقطعه على نحو خاص وبوسائل جزئية محددة ولكنه ينتهي مع ذلك الى تحقيق تلك الخاصية العامة أو تلك القدرة التي تجعل الفنان وكأنه ميداس يحيل كل ما يلزمه الى هذا المعنى الذي انطوت عليه روحه ،

فإذا بالكون كله يتحول حواليه الى هذا الرمز الواحد الكبير الذى صنعه بلفته أو قدرته .

وقد يستطيع القارئ من التحليل السابق أن يتبين مجموعة من الوسائل الفنية التى حقق بها الفنان هذه القدرة سواء فى تركيب الجملة أو فى طرائق الوصف من حيث استخدام اللون والصوت وأفعال الحس ، ثم هذا الانضباط فى حساب طاقات الجمل التعبيرية وجعلها تتردد على مستويات مختلفة حتى تتشبع بالمعنى وتتكون لها أبعاد الدلالة ، ولكن يبقى دائما بالنسبة لكاتب « ساعات الكبرياء » أهم خصائص وسائله الإبداعية التى مكنته من تحقيق هذه القدرة وهى تلك الخاصة — فى التطابق بين الشبه والمشبه به عنده بحيث يصبحان معا موجودين فى كون مشترك واحد هو بناء العمل نفسه كما فى معظم قصص المجموعة أو اخذى دعائمه الأساسية كما هو الحال مع قصة « فى الشوارع » . وقد يستطيع القارئ أن يتذكر دور المركب الشراعى على النيل وعربة التين الشوكى فى هذا القسم من القصة ليرى هذا التطابق بين وظيفتهما كمشبه به لحال فى النفس أو معنى ووظيفتهما كجزء من الموجودات فى عالم القصة ، تمسها الأحداث وتعنى بها .

الصراع فى عالم الرمز والحوار الطقسى :

ولكن فلنقف اذن مع تلك القدرة الغريبة أيا كانت وسائل تحقيقها لنعرف ماذا ستفعل بنا وبالفنان . انها ستلقينا وجها لوجه مع كل معنى القصة دون أن نقضها أو تنهيه ، ستجعلنا نواجه ألوحش على نفس المستوى من الرمزية والدلالة التى يقضى فيها القصص الدينى وما أشبهها مثلا بقصة يعقوب فى سفر التكوين (٣٢ : ٢٤ وما بعدها) وهو يصطّرع طول الليل مع ٠٠ من ؟ مع رجل ، نفسه ، ملاك ، الله !! ان مثل هذه المواقف تحتل أكثر من دلالة ، وان كان نقل الرمز فيها موحدا ، بن ان على القارئ أن يتوقع

أن طاقة التشكيل ، أى ارتداء أشكال متعددة ، ستكون كبيرة ، وإن قفز الكائن الذى يحمل ثقل الرمز من شكل الى شكل أمر منتظر ضرورة يجب أن تلاحقه قدرة على التبصر بتغاير المعانى بل وتناقضها أحيانا دون أن تتغير المعانى أو تتناقى . ومع هذا الانفتاح فى المعنى وصحة أوجهه الكثيرة تأتى خطورة الجزم أو الحسابية فى تحليل الرمز لأن ذلك فى حد ذاته افساد للحظة الخلق وتضييق لقدرة التلقى .

اننى أطيل الحديث فى شروط الدخول الى الحركة الثالثة من القصة وكأننا أتوجس وأخشى منها وأريد أن نحتشد لها معا فهى صعبة غامضة . فلن تنتهى هذه الحركة حتى يكون البطل « قد رآه ، التقى به ، وحده فى قلب الميدان » ولكن كيف حدث هذا وماذا حدث ؟ انه يقول : « وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث . ما يحدث بالفعل . وهو أيضا لن يقول لأحد أبدا » . لقد عرف « ماذا يمكن أن يحدث » أى عرف امكانية الحدوث القائمة دائما لهذا اللقاء مع الوحش وعرف « ما يحدث بالفعل » أى أنه يقرر أن اللقاء حدث فعلا هنا وهناك معه ومع غيره . ولكن ماذا حدث ؟ هذا السؤال البسيط جوابه هو القصة نفسها . ومع ذلك فالفنان البطل « لن يقول لأحد أبدا » . فهل قال ؟

ان هذا السؤال هام فسوف يشغل جزءا ثاليا من القصة . ولكن يبقى سؤال أسبق من مشكلة الافصاح ، هو السؤال عما حدث ؟ ان الافصاح حد ، والوقوع أو الحدث نفسه حد آخر ، غير ان هذا الجزء من القصة هو تصد فى الوقت نفسه للجزم على عدم الافصاح وللإحاطة الموجودة بما حدث . فهل منستطيع أن نجد الأجوبة عن الأسئلة : ما هو الوحش ؟ وما معناه ؟ هل هو حيوان ؟ على صورة جمل مثلا ؟ له سنام صغير وله « أقدام ثابتة لينة على الأسفلت الأسود » . . . يخب بنوع من الرشاقة المهترزة الثقيلة « وله لسان عريض أحمر » مبرد حى مشحون بطاقته « يخرج عنه « صوت الهرير

العميق الأجوف الخشن » أم هو رجل ؟ فى صورة رجل من رجال الأمن مثلا ؟ له مقدرة « خارقة على القبض والتملك » أم هو مزيج من أكثر من حيوان ، فيه « السيقان القوية القصيرة القايضة بكلا باتها العظيمة » كما له مخالفه « المشرعة الثاقبة الممزعة » ؟ بل ان التساؤل يتناول أكثر من مجرد شكل الوحش ليتعلق بوحده ؟ فهل هو واحد أم كثير ؟ وهل المعركة أو الصراع الذى حدث مع واحد أو أكثر ؟ بل ان السؤال لا يزال مشروعا اذا ما ذهب الى أبعد من ذلك وسألنا : هل حدث الصراع فعلا أم هو مازال متوقعا ؟ ان الاجابة على كل هذه الاسئلة لا يمكن أن تكون نهائية قاطعة وهى بصورها المختلفة صنيعة على نحو ما .

ولكن يبقى السؤال الأكبر عن المعنى ؟ دلالة الوحش ؟ عن حقيقة الرمز ؟ ما هو ؟ قد يكون هذا هو الأهم ، ولكن فى الفن لا يفترق المعنى عن الشكل . وفى ذلك الجو الرمزي الذى يصح فيه أكثر من شكل يحق له أكثر من معنى . وليس علينا الا أن ندخل مع الفنان « الى ميدان التحرير آتيا من اتجاه كوبرى قصر النيل » ساعة ان تبدأ هذه الحركة فى القصة حتى يتسائل عند نهايتها عن قدرته على القيام بالمهمة التى حملها اياه الصراع ، فلنتقدم معه خطوة على رمزيته ونموضه محدد الخطو والاتجاه .

دخل ميدان التحرير « تحت نور الصبح العادى الثقيل » . بعد الحادث فى الأوتوبيس وبعد المركب الصغير وعربة التين . دخل « وما زالت قلمساء غير متوازنتين » ولكنه يرى الأشياء ويسمعا واضحة فى الشمس وكأنها يسمعا ويراه « لأول مرة » . ومع تلك القدرة على أن تكون الرؤية والسمع لأول مرة تتحرك دائما فى معنى أكثر مما تتحرك فى حيل ، وتصبح الرئيات دلالات لها تاريخ وقيمة مستخلصة ، كما تصبح المشاعر أحكاما . لقد استحال الميدان كله بكل ما فيه من بنايات المجمع والمتحف والعمارات القديمة

بن وحتى الهيلتون الى « ميدان فى وسط بلد ريفية » وكل هذه المناظر المدنية « بهائم ضخمة كسول حول البحر » . الأوتوبيسات خلية « لا تدور حول مركز اشعاع » وأنوار النيون تغير التساؤل « لماذا أضاروها فى نور الصباح ؟ » هل الوحش أو معرفته أم توقعه هو الذى أحال الميدان الى هذا المستوى من الريفية وقللة التخصر وفوضى فى الهيلتون « سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بساحات مقطوعة من الألوان الجارحة » ؟ هل هذه كلها أحكام من النقد الاجتماعى وتوضيح لما سببه الوحش فى المدينة ؟ قد يعطينا كل هذا اشارة الى دلالة الوحش ومعناه كمركز له القسرة على ضرب مستوى التقدم و ارغام الدافع على التخصر على أن يفجس عن المدينة ؟ هل هذه القدرة الاجتماعية هى التى أصابها الوحش فجعل الناس ظلالاً قائمة فى الشمس « تسير فى غير سرعة وفى غير بطء مجنية بجسمها قامت سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة ، لا أمن لها الا ركن الحيطان وأمن الأثاث والكراسى والمكاتب والسرير الرثة » . نعم كل هذا صحيح ، والمعنى الحضارى أو الاجتماعى للوحش يعد قائماً فى القصة لا مهرب منه ، وقد يكون فى هذا تبرير لبعض الاشارات فى مطلعها الى أفراد أصابهم الوحش فراحوا يخفون ما حدث لهم ولا يتكلمون عنه وجميعهم يحملون (آسار تشوهات) لا تبدو عليهم .

غير ان قدرة البطل على الرؤية من تبطة بقدرته على الحياة الخاصة الحميمة ، فإذا بالفنان يتحرك من صورة الميدان فى بلد ريفية ليقابها بصورة من صوره الثابتة التى يستخدمها لتحريك المعنى واثرائه التى يشبه بها حالات الداخل رغم انها واقع عارض فى الخارج ، فيضع أمامنا عجلة صنمى الجنائنى تحمل « الأزهار الأنيثة المكتنزة الجسد » وكأنما تأتى من عالم آخر يستثير مجله الحس « ولحظة الحرارة الأخيرة الناعمة » فى طيات جسده امرأة باذخة . فهل هو عالم آخر فعلاً أم هو العالم الذى يدافع عنه الفنان والذى

يفترض حق الفرد فيه ؟ وهل هذا الحق حق اجتماعي يوفره المجتمع وما يرجوه له من ازدهار أم هو حق بسيط ولكنه أصلي مرتبط بالحياة نفسها ؟ أم ان الفنان يريد أن يقول ان لا فارق بين الحقيين ؟ اننا أحس - وهذا حكم نقدي - ان الفنان يضطر في القصة ككل مع وحش يمتد على الحياة نفسها فيجعله أقرب الى أن يكون ممثلاً للموت الذي يتهدد الروح والفرد على المستوى اللاوجودي (الانثولوجي) من أن يكون ممثلاً لقوى التخلف والقهر في المجتمع التي تهدد الفرد على المستوى الخلقي أو النفسي . وهذا ما يجعل القصة في نظري قصة ميتافيزيقية أكثر منها اجتماعية ؟ ولكن أي ميتافيزيقيا لا مجتمع لها ؟ وهل لا تؤدي قوى التخلف والقهر في المجتمع إلى إصابة الحياة بالموت ؟ ان الميل إلى المعنى الميتافيزيقي مرتبط بالموضع الاجتماعي والثقافي للفنان ، وعمله هو بالتالي أقرب إلى أن يكون ثمرة لهذا الوضع . ولكن هذا يدخلنا في موضوع آخر من مواضيع أدبنا الحديث ومازالت أمامنا هذا اللقاء المخيف المباشر مع الوحش واللقاء في ذاته معنى أهم من تحديد معنى الرمز .

يتم اللقاء على مسافتين أو على بعدين على وجه أصح . أما البعد الأول فهو بعد التوقع والالتزام ، التربص والوصف المتعالي (الفرائسندتالي) للصلم الجسدي . أما البعد الثاني فهو بعد المشاهدة والنظر واستخلاص الرسالة والمعنى . وفي البعد الأول يتأرجح المتربص والمتربص به والوحش والضحية وكأنهما شيء واحد أو شيكان مشتركين في كون واحد . فأقول ما نسمع أن « الجرم الصغير للوديع » يأتي من يمينه ، من ناحية باب اللوق » . وما أكبر هذا الفارق بين غموض الجرم وشكله ودلالته وبين تحديد اليمين وتحديد باب اللوق ! ان هذا الفارق مثل التيقظ مع اللقاء المخيف لإعلانات الويسكي والسينما الورقية الممزقة الأطراف . هو الذي يصنع في وقت واحد مستوى الرمز ووطاة الكابوس الواقعي . فهل الجرم الصغير للوديع هو الوحش أم هو الضحية ؟ ان الجرم يصبح

« الجرم الضخم قاصدا من اليسين » لا يزال ، وهو يمثل شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديده ، « انها قوة وتهديده موجه للفرد البطل يحيل قلقه القديم الى ألم » غير مستبين ولكن موجه وضبابي » يقبض عليه « يخطئه ولكن من غير ان يفلته » فيحيل فقط القلق الأول الى « نقط حادة في مكان قلبه » ولكن الجرم لا يزال « يخبى في نظر من عل الى الامام في غير مبالاة » « انه حتمي » سوف يثبت الآن كما يمكن أن يثبت في كل آن وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة » . ويحدث الالتحام الجسدي الذي يذكر بصراع يعقوب كما قلت فيسقط « الجرم الضاهق على الأسفلت تحت دفعة الوثبة المنقضه عليه ولكن تنثبت به لا تفلته السيقان القوية القصيرة بكلا باتها » . لقد أصبح القلق وحشا كاملا لا يفلت البطل ، ولكن الى أين ينفذ ؟ « الى مضايء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التي لا منعة فيها » . والفنان يقول ان المنعة ليست فيها ، ولم يقل انها ليست لها منعة ، أو عليها ما يحييها . انه لا يتحدث عن ضعف تحصينات الذات ولكن عن تعرضها الدائم المكثوف لما سينقض عليها فيجد ان « لا منعة فيها » وينهى الصراع بصورة كلها أفعال استمرار لا يتبلى فيها جسدان بل تضطرب « الأجسام وتترطم أعمدة العظام في نظام التخييط والتصادم ، في تصميم الكسر والتهشم وضجيج الأحشاء بالهواء الواهب للحياة » . نعم الواهب للحياة التي كل ما يفقد عليها هو وحش وموت .

وينقلنا هذا الى البعد الثاني لجزء اللقاء مع الوحش . وهو بعد المشاهدة والنظر واستخلاص الرسالة والمعنى من الوحش والصراع . وهذا البعد هو الذي سيعطي القصة نفسها التسالي وحر كاتها القادمة . ان البطل يلتقي وسيلتقي فيما بعد بأفراد يتناولواهم اللقاء في كلمات قصيرة وحوار ملغز كأنه طقوس . وأول هذه اللقاءات يتم مع حادث « أو لا حادث » الصراع نفسه وشخصياتها كلها هي شخصيات من المعارف الجدد وليس « القدامى » كما هو

الحال في مطالع القصة . ويتم هذا اللقاء الأول عندما يقترب شاب - وهذا مستفاد من الوصف غير مقرر - « من الشوارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم » له بعض صفات الوحش فهو « بارز الأسنان » « ذراعا » تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر « وساقاه فيهما رشاقة توحى « بمقبرة خفية على القبض والتملك » . ان بقية المعارف الجدد القادمين في القصة سوف يخلصون - نسبيا - من هذه المشابهات ، ولكن هذا الأول هو الذى سيعطى الوحش تعريفه ويبرر وجوده ، فهل هذا لانه يرى ويشاهده أم لانه جزء من الوحش والالتحام ؟ والاجابة على هذا بأنه كلاهما هى التى تفسر دوره على أنه هو الذى يشبه بمعنى اللقاء معا ليكونا « جرما » الجزئى الحادث ، بصرف النظر عن واقعية اللقاء ذاته ، وهذا ملحظ دقيق من أسرار عملية الخلق الرمزي .

ولكن الحوار بينهما هو ما يستوقفنا هنا . فهو ينشأ من الرغبة الطبيعية ، وأنت تشارك فى منظر التوثب والتريبس ، ان تسأل من يملك ، أيا كان ، عن السر فى عدم المقاومة ، ولماذا هى أمر عام يشترك فيه الناس جميعا . وقد تتساءل : هل يتحدث الفنان ، وهو يثير هذا السؤال ، عن سبب السلبية الاجتماعية أمام الوحش أم هو كالصارخ أمام فجاعة الحياة الطبيعية أمام ما يهددها من قضاء وأنه لا ينتظر ثورة أو عملا إيجابيا ولكنه يعبر تعبيرا رمزيا أسطوريا عن الفجاعة ؟

انه على أية حال يتساءل : « لماذا لا يضربونه ؟ » سؤال لهذا الغريب المشاهد المشارك فيأتى الجواب الطقسي « لابد أن يأكل » . ويستمر احتجاج البطل بنغمات اجتماعية واضحة : « لابد أن نأكل كلنا ونعيش » . فبرغم الغريب ، يبدأ الحوار على أن يتجنب السر والزبد الكامل ليقول : « الجو حر » ويهمنى مع البطل وكأنما تخلى عن رسالته فى المعرفة « أول الصيف » الحر جاء متكررا ، فيعود

الغريب: ليقرر حتمية الإصابة واستمرار الرضوخ المفروض لها ويقول «فاجئنا:» سنعود بالليل لبيوتنا» • ويأتى الجواب من البطل سؤالاً يعبر به عن عزمه المتجدد على مواصلة المواجهة والرغبة فى المعرفة فيسأل: «وأين بيته؟» • ولكن الحوار يتوقف بلا سؤال ولا جواب ليسقط ساكناً وقد تجرد من حواريته • ولم يكن هناك ما يدعو فى نظرى لأن يصاغ هذا المعنى فى شكل حوار بل أن يكتب كجملة يقولها الغريب فى تبريره للوجود المطلق الضرورى للوحش: «لابد أن يسير المركب • سواء كان النيسل هادئاً أم غير هادئ • سيأتى الليل أبداً من السفينة • هذا كل شيء» • وعلى الرغم من أن هذه الجملة الأخيرة عن قدوم الليل قبل أن تاتى سفينة الخلاص تحمل شيئاً من التهديد لا بتبعات الرفض وبذلك قد تضل عن البطل إلا أنها من ناحية أخرى تقرير لعلم جدوى الصراع مقلداً •

ولقد وقفت فى تتبع هذا الحوار الطبقي القصير لانه شكل من أشكال التعبير قد ابتذله بعض قصاصينا واستسهلوا ممارسته فسيقطوا فى غممة لا معنى لها ولا سر • ولكن فنان «ساعات اكبرياء» استأذ فى تناوله حتى فى هذا الجزء الأخير الذى نقيت عنه حواريته ، فالجملتان على الرغم من ذلك موزونتان تماماً ، تبتعثان المركب الصغير الذى شاهدناه فى حالة الوجد الصوفى والبطل فى الأوتوبيس ، كما انهما سيتطوران كنغمة فيما يلى من القصة • وعلى الرغم من اننى لم استغنى من معرفتى الشخصية بالفنان فى تحليل القصة أو حتى هذا الجزء الصعب منها ولم اتناقشها معه الا انه قال لى عرضاً على التليفون - عندما علم اننى أقوم بهذه المحاولة ، ان القصة ظلت فى روحه دون كتابة أكثر من اثنى عشر عاماً وانها تحركت غائمة فى نفسه منذ هذه السنوات البعيدة اثر قراءة بيتين لشاعر برتغالى ولم أعرفه ولا أذكره • وأغلب الظن ان هذه الجملة الشعرية التى أوقفت الحوار هى الصدى المباشر لهذين البيتين وإن أصبحت لينة وظيفية فى تيار القصة كلها •

. ولا تنتهى الحركة الثالثة للقصة - على أية حال - بالتعريف والتبرير للوحش والصراع ولكنها تنتهى بمحاولة للهروب يقوم بها البطل جاريا ينهج « وهو يصطلم بالناس » وزحمة الشوارع « وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة » وهى شتائم وتوجعات لا تتعلق بما حدث ، لانه فى الحقيقة غير مرئى ، ولكنها تعبيرات طبيعية فى الشوارع لابد أن يحسها الفنان ويمسك بها وهو فى حالة هذا ولابد بمنهجه التعبيرى فى البناء التشبیهى أن يجعلها أحكاما تخدم معناه . فهل يستطيع أن يحمل مسؤولية المعنى والمعرفة : « هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التى قرأها فى العينين الساقطتين الدارستين » ؟ انها عيون الوحش الذى كان قادما « بعيون عاقلة وشرسة » وهما فى الآن نفسه عيون البطل فى أول كلمات القصة . فهل هو يحمل الوحش فى داخله كما يحمله كل انسان ، وهل لهذا « هو أيضا لن يقول لأحد أبدا » ؟ ان المعرفة قائمة والقلب « واجف قلق » ولكن ما العمل ؟

. علينا نحن - على أية حال - أن نغير من وضع هذا التحليل والا فلن ينتهى . فلقد أصبحت أحسن مع القصة كأننى قطار مندفع ثابت السرعة يقطع مسافات طويلة فى طريق أصبح كله معروفا متوقعا بالتفصيل ، وأرجو أن يكون بعض من هذا الشعور بالتوقع والمعرفة قد أصبح القارئ مشاركا فيه دون أن يفقه - كما لم افقه - متعة استرواح المناظر وتذوق المعانى وتقبلها . على أن هذه الوقفة تعنى شيئا آخر مستمدا من منهج التحليل هو الانتقال من تعقب أدوات الفنان النفسى وطرائفه فى صناعة موضوعه الى محاولة الكشف عن المضمون الانسانى للموضوع وموقف الفنان وأحكامه عليه .

سلام الصمت والانكار والجهد المربح :

« كيف وصل الى الغورية » ؟ تبدا الحركة الرابعة بهذا

التساؤل حتى نستشعر طول الجرى والهروب الذى جعله يتهج بعد
« مطاردة أفلت من قبضاتها المفاجئة المتهدة » ماذا يريد هناك ؟ هل
هو مجرد الهرب أم هو استسلام الى مكان ، أى مكان ، بعد ان لم تعد
ساقاه « تقريمان على احتماله والاندفاع به » ، جريا • الأرض تشدهما
اليه وصدره شق ضيق جراح • هل يريد السلام فى أرض
« الجلعان » ؟ لقد مررنا فى الحركات السابقة بالقلق والمتهيجين
والصراع والمطاردة وهذا الذهن الآن « فى ثورة ثابتة من حرارة ساطعة
بعد عودته لصراع لا يعرف أين يحدث ولا كيف يخرج منه ، ولكنه
يعرف أنه سينذهب اليه طائعا أو يرغمه ، ويخور قلبه عندما تطوف
بذهنه نتائجها ، لا يسلم بها أبدا ، ولكنه يعرف انها محتومة
وضروية » •

والجملة جميلة أساسية فى فهم مضمون القصة وتحديد الوحش
فيه • وليس المهم فيها هو الاعداد للصراع ، فهو حقيقة لن يتم ،
فليس له مكان ، وإذا كنت مجبرا على الصمت فان هذا الاجبار على
الصمت غير محدد الطبيعة ولم يتعرض له الفنان ، بل كاد يترك دائما
للفهم انه مفروض من الداخل أو انه نوع من الكبرياء الداخلية للفرد
التي تمنعه من الاعتراف بما أرغم عليه • كل هذا يميل ناحية اعتبار
الوحش ضغطا اجتماعيا يضطر أمامه الفرد الى الانعزال ويستغرق
فيه حتى يصل الى الغربة حتى مع النفس • ولكن الفنان فى جملة
السابقة مشغول بالنتائج المتوقعة للصراع أكثر من انشغاله بالصراع
نفسه ولذلك يقرر فى فجعة مهزومة تتباعد عن المعنى الاجتماعى
أو ترفعه - كما أرى - الى المعنى الميتافيزيقى فيقول : « انه ،
التغيير ، غير طارىء على الحياة الاجتماعية » وهذا أيضا موقف
ميتافيزيقى •

انه اذن ينشد ، فى الحقيقة ، فى الغورية سلام الصمت والانكار
والجهد المريح • أما سلام الصمت والجهد المريح فيبعثه الفنان فى

صوره التي تشبه اللوحات الثابتة والتي قلت انها رغم وجودها الواقعي الخارجي فانها في الحقيقة مشبه به لمعان مضمرة والمصابر الأبطال عنده . فهو يجلس الى قهوة بلدي « كان الحمام يدخل ويخرج برشاقة بطيئة هادئة من أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب فوق جدارها » يرقب « الظلال المتراوحة » ويتذكر طفولته مع أبريق الشاي الذي لا يشرب منه أحد غيره ويقوم بالجهد البسيط المريح وهو يدير الماء الساخن في الكوب ليظهره مطمئنا الى أن « هذا هو المفروض أن يفعل » ان « كل شيء يغمره سلام وصمت » ولكنه سلام « في همود الظهر المبهم » سكون « كل أصوات فيه بعيدة أو مكتومة الصدى مبتورة » أو نداء غريب كنداء الديك في الظهر للفجر و « وحشة هذا النداء لا تطاق » . فهل النداء كالنداء الغريب في آخر القصة باسم الفنان أم هو اتهام قاس بخطيئة الصمت والانكار ؟ ان البطل يتشبث - على أية حال - في هذه الحركة من القصة بسلامه المصنوع من الصمت والجهد المريح ويصيفة في آخرها في صورة ثابتة أخرى لوظائف الحياة الأساسية وحقوقها في ولد صغير « يقص في وسط الحارة » والنساء « يثرثرن بصوت غمال مرتاح مهادن » والطفل قد « استغرقه الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جسمه » وجهه محتقن بالدم والجهد المريح « ولكن الحياة كالببؤ، دائما « تثرث وتتشقق شقوقا رفيعة متعرجة سوداء » . فاصابات الوحش وآثاره تصيب كل مكان . انه لم يغادر الغورية الا وقد رأى هذه الآثار « وانسخة قاطعة الوضوح ، آثار أقدم أزبنة ، مفلطحة . . . في لدونة الرمل . . . على بعد خطوتين من عينيه » .

ولكن ماذا عن الانكار ؟ ان فنان « ساعات الكبرياء » يستخدم دائما نعمتين في حركات قصته تنتمي كل منهما للآخرى رغم تباينهما . والانكار هو النغمة المقابلة في هذه الحركة للصمت والجهد المريح ، وتآزرهما معا هو الذي يجعل السلام تأكيداً للحرص على الحياة وليس مجرد استسلام مطلق كامل للوحش . ويتكشف

الانكار فى الحوار مع المعارف الجدد كما يتكشف فى الحوار الطقسى مع المعارفين بالوحش وسره . فالحوار الطقسى يكون دائما مع المعارفين وهو غير الحوار العادى . وهو صيغة تبتدئ جنورها الى الأسرار الدينية التى كان يتلقنها المريد فى صيغة سؤال وجواب من المعارف المتقدم عليه حتى يصبح فردا من جماعة المواصلين والمعارفين . وإذا كان الحوار الطقسى فى صورته الأصلية يؤدى الى كشف الأسرار للمريد ، فإن الحوار الطقسى فى قصتنا هذه يؤكد جبر الصمت ، كما ان اصرار البطل على الانكار ، يؤكد انه لا يريد أن يستسلم كما استسلم المعارفون قبله ، سواء من المعارف القدامى أو المعارف الجدد . فى الحركة اذن حواران عاديان مع القهوجى و حوار طقسى واحد مع رجل يملك من الوحش شفتيه « السوداوين تقريرا ، الشهواتيتين ، ولذلك كان ينظر اليه دون ابتسام ، عارفا « أما الحواران مع القهوجى ففيهما لهفة البطل على المشاركة التى لا تتم والحرص الذى لا نتيجة له على تحريك الناس الى المقاومة ، وكلاهما – أى المشاركة والمقاومة – لا يتمان أبدا لان الصراع غير مرئى أو لانه ضرورى متقبل . فعندما يحاول البطل أن يستخلص من القهوجى الاعتراف بما حدث فى الميدان وكأنما هو نفسه لا يعرف بقول القهوجى : « ماذا يمكن أن تفعل ؟ لابد أن يمر الواحد من الميدان فى الصباح أو المساء » . ألا يقربنا هذا من معنى الموت الذى علينا أن نلقاه ما دمنا فى الميدان – الحياة كل صباح ومساء ؟ ويعاود القهوجى الترحيب بالبطل الغريب فى الغورية فيعاود البطل السؤال عما حدث وكأنما لم يتلق جوابا من قبل ، وبدلا من أن يعلن البطل عن السر ، نراه يحتمى بالانكار الذى يأتى بعله صباح الديك فيذكرنا ببطرس الذى أنكر المسيح قبله .

انه يعاود سؤال القهوجى وكأنما هناك اعتراف لم يقل : « تقول حدث شيء » . فيجيبه القهوجى بصمت السؤال : « أى شيء ؟ » . ويحتمى البطل براحة الانكار والصمت : « أبدا . مجرد

سؤال » • وينتهي الحوار بتقرير الاتفاق على الصمت والانكسار :
« حصل خير » • ان البطل يحاول أن يتكلم أن يقول ولكنه يريد
المعرفة والمشاركة وعندما يتعرف على « العارف » يبدو بالحوار
الطقي : « هل حدث شيء ؟ » وينتظر الإجابة « وكأنما حياته نفسها
تتوقف على رد الرجل » • ولكن الرجل لا يجيبه • فيبدأ البطل من
جديد لي طرح دعوة للمشاركة ويقول للمعارف : « اتفضل ، شاي » •
ثم يعاود السؤال ويتدرج الحوار حتى يجيبه الرجل الإجابة الرمزية
الكاملة : « الانسان دائما مصاب » • ولكن البطل يرد معترضاً
وكانما يمكن الاعتراض : « لا • لا أبدا • » • فهل هذا مجرد
ثورة ورفض للقدرية أم هو إجابة في فجعية منهزمة ؟ قد لا نستطيع
- كما قلت - رغم كل هذا التحليل للقصة أن نجيب إجابة قاطعة
على هذا السؤال ، ولكنني أجد نفسي دائماً أقرب إلى فهم المعنى
الأخير •

رؤية الفساد الأخير :

كم مرة قرأت هذه الحركة القادمة في القصة !! انها تفجئنا
سريعة كثيفة غامضة مثقلة بالمعنى وكأنها القمة الوعرة للعمل • وإذا
كانت الحركة الثالثة التي يحدث فيها الصراع على المستوى الرمزي
هي أصعب أجزاء العمل وأكثرها خطورة على المتلقي المفسر ، فان هذا
الجزء الجديد له صعوبات من نوع آخر ، فهو لا يتعلق بحدث
ولا يصف منظراً واحداً ولا تتحدد فيه أشخاص ومع ذلك يتفق
بالأحداث والمناظر والأشخاص بل والحوار • انها كتلة واحدة من
التعبير الخالص عن التجربة ، والمناظر والأحداث المطلقة التي كلها
أحكام غير متحيزة في زمان أو مكان جزئيين • ولهذا فقد تكون أفضل
مواضع دراسة خصائص الجذلة عند الفنان لانها تظهر خالصة في
فيزيتها المجردة ، بنا في ذلك طرائقه في استعمالات العامية مفردات
وتعابير • ولكنني أفضل أن أزعج مثل هذه الدراسة للقال آخر

حتى نستكمل محاولة تحليل القصة وكسر كتلة هذا الجزء المتناسك الصلب منها .

وقد يكون أيسر طريق الاقتراب منها هو وصفها من الخارج من حيث انها - كما قلت - كتلة متماسكة . فهي تبدأ بصرخة ملهوفة متمسائلة : « أين يجده ؟ كيف يمكن أن يجده ؟ » . ويلحق ذلك سبع عشرة فترة تتكون كل منها من جملة أو أكثر تبدأ جميعها بكلمات : « قال له » وكلها تتعرض لوصف الوحش وخصائصه كأنما تحاول أن توجده بأنواع من الكشف المتوالى المتخفق وكأنها فقرات فى نص دينى . وفى نهاية الفقرات حوار من فقرتين يبدأ أيضا بـ « قال له » ، وكأنها يؤمنان على كل ما قيل : « قال له انه يعرف ، أنه يعرف » . قال له صحيح . وتختم الفقرات كلها بخاتمة أشبه بالكودا الموسيقية تصف « العناق الأخير » بين البطل والوحش وأول لحظات الفساد الأخير « وكأننا هى رؤية لنهاية العالم » التى يظلم فيها كل شيء . والقطعة فى جملتها أشبه بالطقس الدينى المتكامل أو القداس الرهيب .

فلنستترك اذن من الداخل . ولنبدأ بالتساؤل : من الذى قال ؟ ومن هو الذى قال له ؟ وهل هناك متكلمان أم هو شخص واحد تصدر عنه الفقرات المتتالية ؟ ان الفقرتين الأخيرتين فيهما على وجه التأكيد دليل على وجود متحدثين أحدهما يقول : « انه يعرف ، انه يعرف » والآخر يقول : « صحيح » . ان صيغة الحوار الطقسى التى استخدمتها القصة قبل ذلك تقطع بأن أحدهما يمثل المعارف بأسرار الوحش الذى ظهر مرتين من قبل وان الآخر هو البطل الذى يسأل ويريد أن يعرف ، حتى اذا عرف قال انه « صحيح » . وترتيب الأدوار على هذا النحو هو الغالب وان كان غير مقطوع به . ولقد حاولت من خصائص الفقرات فيما قبل الفقرتين الأخيرتين ان أتبين نسبتهما للبطل أو للمعارف على أساس التحليل الداخلى للنص

وارتباطاته بالتعابير السابقة ، بحيث يمكن تصور القطعة كلها على أنها حوار طقسي واحد ، ولكن هذا لم يستقم لى وإن كان من اليسير نسبة بعض الفقرات على وجه القطع (مثل ٦ و ٧ و ١٥ و ١٦) إذا رقمناها المعارف حيث تستمد الخصائص الواردة عن الوحش . فى هذه الفقرات من التمتع بعناق الوحش أو من صور مرتبطة بالمركب والسفينة التى استخدمها العارف من قبل . اننى أقرب على أية حال الى اعتبار الفقرات السبع عشرة الأولى لمتحلت واحد هو العارف أو البطل وقد تقمصه بمعنى أنه أصبح هو الآخر أيضا عارفا . وهناك ملحظ أخير قبل أن نفرغ من هذا الاشكال قد يساعد على تأكيد هذا الرأى . ففى الحركة التالية من القصة أى الحركة السادسة نجد الكاتب يختتمها بفقرتين تبدآن بكلمات « قال له . . » . فى الأولى كلمات قالها العارف فى الميدان ، وفى الثانية كلمات يمكن أن يقولها العارف فى القهوة لانها مستخلصة من الحوار الذى دار هناك .

ولكن ليس هذا الاشكال الشكلي - على أية حال - أهم من خصائص الوحش التى تكشف عنها الفقرات . ان الفنان يفصح فى هذه الفقرات بكل ما يستطيع من وضوح - أو ما يريد من وضوح - عن معنى الرمز الذى أقام عليه قصته . وأما من يقدمون فى الفن الاستطاعة على الارادة ، فلا يعينى ما كان يقصده الفنان ، يقدر ما يعينى ما يستخلص - فى حدود الامكان - مما حققه ، وإذا كان العمل الفنى يبقى بعد تحليل تجربة متعددة المعانى متجسدة المذاق مع التلقى ، فإن لى أن أتابع من الخصائص ما يؤكد تجربتى الخاصة من التذوق واتجاهى الى اعتبار الوحش معنى ميتافيزيقيا يهدد الحياة ويهددها دون أن تجده أمامها مهريا ، بل ان مجرد توقعه اذا أصاب النفس حتى قبل لقائه فانه يضربها بميسم الغربة ويفرض عليها لعنة من عدم التوصل رغم كل ما تقلبه من حب أو ما يجيش فيها من توفز للمعرفة والمجد الحسى .

إن الوحش في الفقرات الأربع الأولى « في كل مكان » ، لا يختار حيا دون آخر من أحياء القاهرة • فهو غير طبقى لانه موجود : « تحت المتحف الزراعى • • في أغوار الغورية • • عند السفارات • • والزمالك • • قرب قرافة الامام » بل وفي حديقة الحيوان « مقفلا عليه داخل القفص وخارجه أيضا » • وهو مع الناس جميعا « رجله على رجلهم » بل ان « أنفاسه في صدورهم الشرسية ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة » • وفي الفقرات الثلاث التالية : « يدخل الشارع - كل شارع - باقدام واثقة تعرف انها تملك الشارع ، كل شارع » • ومن هنا جاء عنوان القصة • وهو مع هذه الثقة يحتضن الناس بصيونه وله رائحة حريقة زاعقة هي « رائحة الحيوان الوحشى » و « ولكنك ، تعرف ، تجيها • • وتجلى فيها طعما تريده » فما أقرب له الموت عنلما يجىء !

وتقدم الفقرات الأربع التالية مناظر لحوادث اختراسه وما يترسكه من اشلاء أو دم أسود أو قطع صغيرة ملوثة من ملابس الأطفال • والناس في كل حال يغطون على آثامه « ولا تسرع ولا تجرى ولا شيء » - سلبية مطلقة من الناس كلها لا تقوم الا امام ما لا راد له • ولكن الاشكال في الرمز في الفن هو في ان له شكلا • والوحش في صورة الحيوان الخرافي - حتى وان كان غير مرئي - له زفير وزمجرة يضرب ضربة واحدة فيجعل الرأس المبتور يسقط صامتا • ولانه غير مرئي فان الفنان يستخدم قدرته التشبيهية الخاصة ليجعل كل ما يحدث في الشارع وكأنما هو من آثار اللقاء معه • فسنقوط الإنسان يحدت فرقة حقيقية ولا يدرى أحد هل جاءت من العظام المتشعبة « أم من فرقة غازات العادم • • أو من خبط الأبواب » • ان كل الأحداث في السوارع هي مشبهات لافعاله حتى طقس الأطفال المتوارث وهم يرمون الأسنان المنزوعة في عين الشمس •

وعندما نصل الفقرات الى هذا الجهد من التوحيد بين الداخل

والخارج وبين المشبه والمشبّه به ، بين الوحش والضحية ، نقرب من التوحيد بين الوحش والبطل نفسه ، وترفع زمجرة « توقف كل شيء » فى دائرة ضيقة ، لحظة من زمن وتخرس كل شيء . ودون نظر أو كلام يعيش الناس « فى لحظة الصمت والانكار » ويستحيل الوحش الى « مركب بطل » رشيق ضخم الجرم على النيل تتموج أشعة جسمه بقوة ومعرفة . . . ويستيقظ رب البيت أى بيت « ويظن انه يحلم » فقد جاءت السفينة ولكن بعد أن هبط الليل .

وتأتى الرؤية الأخيرة والبطل يعيش فى كل لحظة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير . . . « وتطبق السيقان الشعراء فى جنباتها المصمم الخام ، قاسية تؤدى واجبا ، لذلك قسوتها ضرورية » . نعم ضرورية . . . ولا بد بعد ذلك ان « تنسكب الى الخارج عصاراته (الجسم) الطازجة فى أول لحظات الفساد الأخيرة ، ويرتفع الكريز الأحش بملا العالى وتسبط الرائحة المليئة الثقيلة تسد كل شيء للمرة الأخيرة ، فى حزن يضغط تلك الضيعة الرحمة المشبهة النهائية التى يظلم فيها كل شيء . . . » وتنتهى نهاية العالم ونهاية الصراع ولا يعود نور ولا حب ولا صلة ولا ناس

حب غير مفهوم وغير مطلوب :

ولكن لماذا لا تنتهى القصة ؟ لقد كانت نهاية العالم رؤية وتنبؤا وليس حادثة أو واقعة منتهية النتائج . وإذا كان الوحش قد أصبح حقيقة مقبّرة تناولتها النفس بالافصاح التام وعاشت تجربته كاملة فان هذا الافصاح والمعاشية لا يكسران الصمت والانكار فى العالم ولا يحبطان القلق والغربة فى الداخل . ان الموت الميتافيزيقى الذى يهدد العالم والفرد هو انعكاس للضغط الاجتماعى والارغام الذى يعانىه الفرد فى المجتمع ، والفنان فى هذه الأجزاء الأخيرة من القصة يقدم المركب الأسيان للوجهين القاسيين للوحش : الوجه الميتافيزيقى والوجه الاجتماعى .

فالناس كلها بعد الرؤية أصبحت « مواكب تمر به » . . . في وحدتهم وانساجهم معا ، ماذا يفعلون ؟ » . ان الناس جميعا غافلون عما يهدد الحياة والمجتمع وعن الوحش الذى يترصدهم جميعا . ومن غفلتهم أو من صمتهم أو انكارهم وعلم مقاومتهم استحالت وجوههم جميعا الى وجوه « منحوتة » . عرتها الوحشة والقسوة . . . وانها كانت التحقق والاحباط معا ، كلها لا تفى بشئ . . .

ان أبطال الكاتب جميعا فى قصص « ساعات الكبرياء » ينتهون الى لحظة هذا الوجه المنحوت الذى فقد القدرة على الخلاص بعد ان هبط الليل وممرت السفينة الوحش التى كانت تحمل مع الموت والاغتراس والاحباط امكانيات الخلاص والتفتح والخلود . وقد نستطيع ان نتابع هذه النهاية الموحدة فى القصص جميعا اذا عدنا لمناقشة « الساعات » كمجموعة متكاملة ، ولكننا نجد هنا صورة مجردة ورمزية معا لهذه النهاية مصاغة فى الخطبة التى يوجهها الكاتب للناس بعد نزوله من قمة الرؤية . غير أن خطابه الذى يوجهه مباشرة « لكم » تمر به المواكب « أرواح محبوسة فى حجر قبورها » ولا تستطيع الرؤية أو الخطاب أن تجعل الناس يتوقفون أو يقاومون ، ويبقى السؤال : « ماذا يفعلون ؟ الى أين يذهبون ؟ » . انهم جميعا « أرواح تنادى بصوت مكتوم تنويعات شائعة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم الذى ينحت ويسقط منه فتات الحجر لتترك مسوخ النقوش المصراة ، طبقة بعد طبقة » . ولست أرى أوضح من هذه النطور لصياغة معنى التنويعات التى قدمها الفنان فى « الساعات » على « أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم » . فهو دائما فى قصصه يبدأ منه ويعتمد عليه ويراه دائما وهو يتعرى مع ضغط الحياة والمجتمع حتى يصبح مسخا ونقوشا مصراة .

وما أقسى الفجيرة عندما يذهب الناس الى لا مذهب ، وعندما

يصلون ما ليس عملاً ، فيقف البطل وحيداً لينظر في نفسه ، مطلاً على كل ما كان يريد أن يحقق وما كان يستطيع أن يقدم لهم ، وإذا به يخرج بالحقيقة الموجهة التي ستظل تهدد كل فنان • « الوحش الذي يسكن قاع قلبي ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب ، ثم تتهدم الأمواج » • • •

لقد سقط الرمز أخيراً من قسوة الفجعية وانكشفت صلبة الفن عن لؤلؤة مجهولة غير معروفة لا نفع فيها لأحد ، وأخذ الوحش شكله الثالث والآخر بعد معناه الميتافيزيقي والاجتماعي ، ليصبح دلالة لازمة في الداخل ، كانت قلقاً لا تنحل حوافه في أول القصة ، ثم أصبحت صراعاً مع الوحش من أجل الناس ، وعادت غربة مقضياً بها لحب غير مفهوم وغير مطلوب • وإذا كان الوحش قد استقر في قاع النفس فقد استقرت معه تلك الرغبة المستمرة التي لن تتحقق في الخلاص فيسأل : « أين سفينتي ؟ » • وبجيشه الجواب الطقسي الذي لم يتعلمه : « كلنا لابد أن نمر في الميدان » •

نور الوعي الداخلي الخافت :

وعندما من في الميدان في ساعة اللقاء الأول مع الوحش كانت « ظلال الناس القائمة في الشمس » • يحسها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة • أما الآن وقد عبر الميدان بعد اللقاء والصراع والرؤية والخطاب الأخير وقد بدأ النهار ينكسر ورحلة الشوارع تقارب نهايتها ، الآن وقد أتم الرمز وتبدد في المعنى المجرد ، لم تعد إلا الرجعة للفن الوصفى الحسى وللبيت وللوعي الداخلي بالذات • ومع هذه الرجعة « يحس الناس على الرصيف غرباء ، واخوة يأمن لهم ، ظلالاً قائمة في نور وعيه الداخلي الخافت » • • انهم غرباء واخوة ، وهذا الشعور بشمول المحبة التي تشمل الغرباء وتجعل الناس جميعاً اخوة هو الخلاصة الروحية لتجربة القصة ، وهو دعوة الفنان الحقيقية •

ان مرارة تجربة الصراع مع الوحش ، تلك التجربة المستمرة الدائمة والحتمية الضرورية ، يراجعها الفنان كلها في الحركة الأخيرة للقصة ويتناولها بنفس طريقته المعتادة فيعرض لوحته الثابتة الأخيرة تحييل طابعه التعبيري ومنهجه التشبيهي وتتركز فيها المصانيف الميتافيزيقية والاجتماعية والنفسية للوحش . لقد انخرس البطل من باب الحديد حيث ألقى خطبته وسار وحيدا لم يفرغ من شيء ولم يعلم العدة « ليوم مشهود » ووجد نفسه « عبر الشارع أمام سينما مترو » في المغرب البرونزي الصليبي القاتم الخضرة . وكانت قنصاء من التعب والغياب ، تختطفان به طريقا غير مستقيم « فهو على كل ما حمل من مهمة ورسالة لم يستطع أن يعد طريقا مستقيمة » وإذا به يشبه الحال الأخير لنفسه ولعناهُ بواقع موجود قائم : « كانت تجلس على الأرض ترضع ابنها ، صعيدة ، سوداء ، مجعدة وجافة تنحني عليه باهتمام ، وفي حركة حنان لا يطاق ، لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء » . انها تحاول أن تصنع الحياة وقد افترسها الوحش ، والحياة التي تصنع على حجرها « مضغطة تبدو لا أهمية لها ، سمكة على حافة » . « كالأوتوبيس عجلاته تتوقف على حرفه لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان » ومن قبله ذلك « الحيوان الذي يريد ان يتشبث بالحافة ولا يقع » في أوائل القصة .

لقد بقر انسانيتهما الوضع الاجتماعي وكأنها واحد من الصناديق « الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار » . أو كقفص الجريد الذي تبيع عليه جرائدها وكتبها وقد انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه . ان الحياة والحيوانية فيها وهي تمارس قمتها في الأمومة قد جفت وأصبحت كئديها على ما فيه من عصارة أصبح « مقصد الجلد » « مشققا بالقضون النابلة » وقد أصابها هذا النحات الذي يصيب أصل الجسم « من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه ، من جفاف انتزع العطاء من بئر ضحلة » ويأس الاقتراب والابتعاد بلا نهاية « من الاشباع الذي

يعلم وينبكت وعنده : « من طبيعية الحياة نفسها ومن أثر الضغط الاجتماعي على هذه الحياة » .

وإذا كان حنانها كحنان الفنان « لا يطاق » ، فانه لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء ، بل هو محاولة للعطاء الخالص معزولة يقف أمامها البطل يريد أن يتواصل معها . ولكنه يتبين ان الوحش قد افترس ما يمكن أن ينشأ بينهما من علاقة ، فمن السخف أن يناديها بما يريد وأن يقول لها « سيدتى ، حبي ، أمى » . بل ان دموعه نفسها لا تريد أن تنكبسب رخيصة أمام تلك النتيجة الفاجعة التى حققها الوحش : « يا أمى لا شأن لك بى ، لا شيء يصل بيننا » . وترجع اليه كلمات « العارف الأول بالوحش فى الميدان : قال له الوحش سفينة تبهر بنا فى مياه مجهولة . وعندما يضيف له « والعالم وحش ، والألم » ، لا يستطيع الا أن يسجل رفضه ومقاومته بقوله : « ولا هذا أيضا لا » . كما فعل فى الحوار الطقسي فى الفورية ردا على « الانسان دائما مصاب » فقال : « لا لا لا .. أبدا » .

ولكن النفى مهما كان مؤكدا لا يكفي لكسب المصركة ، بل ان التوقف عند النفى يحيل البطل نفسه الى « وحش مهدود يمشى دون ارادة ، دون مغالب ، دون عقبة ، دون وصول بلا انتهاء » يجعله يسير « فى آخر نور المساء فى طريقه الخاوى » وقد كاد الصيف يصبح خريفا « فى غيبة لا يوجد فيها الا جسمه » ونور وعيه الداخلى الخافت ..

انه مثل بتجربته ، قد جرب الصراع وجرب الرمز وجرب الفن ولم يعد يملك للناس على غربتهم الا الاخوة والأمن ، فلماذا لا يعض عينيه ويسير « فى حلمه » . وإذا « بنافورة تبتشق بين جدران كثيفة » هى جدران روحه الفرية « ويرطم ماؤها بالحجر الصلب القديم » الذى كان قلعا فى الصدر واستحال غربة قاسية تجعله لا يتبين حتى اسمه : « أدوار .. أدوار » ويتساءل : « ما صلته به والصوت غريب ؟ » .

فهل البناء فناء من الوحش يطارده حتى النهاية ، أم هو من
ناس « أخوة وإن كانوا غرباء ، يريدون أن يستوقفوا الفنان ليقلوا
له : لا لا لا .. أبدا .. حبك مفهوم ومطلوب » :

ان الفنان .. « دون أن يفتح عينه ، كان يبدو له أن البيت
بعيد » . ان الرحلة كانت حقا طويلة ، ولكن الفنان الكبير له بيت
قريب قريب فى قلوب قرائه .

بدر الديب

القاهرة

تحت الجامع

— أمه هاتى قرش * *

— يوه جاك قرش لما يقرشك ، هو انت يا بت
ماتشبعيش قروش ؟ طب سدى سد * هو أنا قاعدة لك
على بنك يا بت ، والا على حنفية قروش ؟ قال ايه قال
قرش * * صباحى وليلاتى على الله قرش * هو انت
يا بت ماتستكفيش نيلة قروش ؟ انت مش لسه واخده
امبارح من أبوك ، وقرش اصطبحت بيه على وش
الصبح ؟

والبنت ثبتت عينيها بوجه أمها ، يربطهما به سحر
الكلمات القاسى * الكلمات اللاذعة تنثال عليها ، لن
تكف أبدا ، تتقلب وتئز كأنما تخرج عن موقد الجواز
وهو ينفج فى عتمة العصر التى توشك أن تطمس معالم
الغرفة *

أمها تربعت أمام النار ، تقلب الطاسة بالمعلقة
الكبيرة الصدئة ، ورائحة الباذنجان الساخن سطعت
فى الهواء المحبوس * * التفتت إليها أمها لفتة

خاطفة تكويها بنظرة من العينين اللامعتين بألق أسود
صلب • وهج النار ينعكس على الوجه الأسمر المتهضم ،
النضر مع ذلك بسخونة متضجرة • والمدورة تحبك
الرأس وتلف الشعر الأثيث •

انحنت البنت على عروستها النائمة وسبط كومة
مهوشة من الخرق ، وأزاحت العلب الصفيح والنفايات
اللامعة على أرض الشرفة الضيقة ، تحت الواح الخشب
المائلة على الحارة •

ورفعت عروستها اليها ، خرقه أخرى ملفوفة
محزومة بشريط ناصل ، تتدلل منها ساقان خرعتان
لا قوام لهما ، وذراعان احدهما أطول من الأخرى
وأستدت بيدها الرأس المحبوك بمزقة من مدورة أمها ،
لم يبق فيها الا بضعة أقراص دقيقة متلاثلة من التوتر
الأزرق • ما أجملها وما أرقها ، تبتسم لها من عيني
لا يعرف أحد غيرهما جمال نظرتها ، وابتسامتها حلوة ،
وجسمها اللدن اللفهاف طيع فى يديها بحاجة الى الحنان
الذى يدر به صدرها ويفرقه •

ضمتها وابتسمت لها ابتسامة حميمة ، واستدارت
بها الى جنب فلا يعود فى العالم سواهما ، والحنو
والرقة • تطويها الى صدرها الضيق الناحل ، وتربت
شعرها الكثيف المسرح ، أصابعها ، هى وحدها ، تعرف
مسته الناعمة • ابتعد أزيز النار ونشيش الكلمات
والزيت المغلي • ولم يبق الا الشرفة المزحومة •

وهي تلتصق بلخاف مطوى قديم نبتت عليه نبت
ملبدة من القطن المصفر ، واللحاف يرتفع كأنه سد
طرى يحلو الاختفاء وراءه .

لم تكد تنعم بكن مخبئها ، وتنحنى على عروستها
حتى وخزتها فجأة شظية ناتئة من السبت المدور ، تطل
منه رؤوس البصل والثوم الناشف التي ضربتها الشمس .
وندت عنها صرخة ، مكتومة كأنها ذنب . وخطفت يدها
مكهربية بالألم فاصطدمت بأعناق زجاجات الخزين
المسدودة بالخرق ، تكثفت في قاعها صبايات من ماء
الزهر والخل والسبرتو . وهي تمص أصبعها ، كأن
في فمها حسا بالدم الذي انبثق منه يومها عندما
كشطته زجاجة مكسورة العنق ، لولا ان حجزته أمها
عندما ربطت اصبعها بخرقة صوف .

ونور العصر تريقه عليها سماء ضيقة جافة
محصورة بين سطوح البيوت ومئذنة الجامع الضخم
العتيق . والحر آخذ بالنفس .

— ماجده ، يابت يا ماجده يا مدهولة على عينك ،
انت ما لك يا بت ؟ باندہ عليك بقى لى ساعة وانت
ما ترديش يابت ؟ هو انت اتلجمت ، اتلبشت خلاص ؟
أعمل ايه فى البت دى يا خواتى ؟ قومى على حيلك
يا مضروية فى جنبك هاتى لى غطا الحلة .

هذه الولولة تدق قلب البنت ، تفاجئه بضوء ساطع

من الرعب ، فتنهض مدفوعة كأنما برغمها انتزعتهما
الصرخات وبطلعتها على أرض صلبة ، وعيناها معلقتان
بالوجه الندى بعرق السخونة الخفيف ، والعينين المتألفتين
بسمار حاد .

— اسم الله عليك وعلى أخوك ، طلب قومي يا ختي
يا حبيبتي يا لله ، مش تفتحي يا ضنای !

بادرت الكلمات الحانية تلحقها كأنما لتقليلها من
عثرتها . كانت ذراعاها تضربان الهواء ، خانتها
ساقاها اللدنتان ، في لهفتها على الجرى الى أمها ،
فاندفعت عتبة الشرفة تخبطها وتصدها .

لانت العينان الصخريتان وتسایل فيهما حنو
تكسرت من فوقه القشرة الجامدة . وسال الدفء في
قلب البنت كماء ساخن يحمل أمامه السدود . وقامت
تجرى في أمان رحيب وهى تدعك جنبها . ولم تبك .

وعندما عادت الى جنب اللحاف أسندت ظهرها الى
نعومته الدسمة . هذا الجانب المالى منه يأويها الآن ،
دون لهفة ودون خوف . وقد عاد الى الغرفة صمت خلا
من الطنين ، وهمدت الرائحة الكثيفة .

أخذت عروستها على مهل فى حضنها . خداهما الآن
متلامسان . وهما تنظران معا الى دكان المجلاتى المفتوح
جنب باب الجامع الكبير .

تغيبان معا فى نشوة من تأمل العجالات السوداء
مرصوفة حتى السقف ، وكأن أيديهما تتحسس معا
نعومة الدراجات المقلوبة المعلقة على الجدار ، فى قاع
الدكان ، مصقولة فضية تومض فى العتمة • تنبثق
الأسلاك من بؤرتها ، فى أشعة هفهاقة ، مندفة
ومشدودة ، محبوسة فى توتر دائرى لا تشيع منه العين •
وفى الخارج جدران الجامع الضخمة قائمة بأحجارها
الكبيرة العتيقة ، انبرت القشرة عن مربعات الحجر هنا
وهناك وتعرى لحمها الحليبي الأبيض منورا فى السواد
الذى تركته أجيال طويلة من التراب ومس الأيادي •

وهى تناغى العروسة ، فى كلماتها نبرة من صوت
أما - أما الأخرى الحلوة :

- عايزه قرش يا حبيبتي ؟ خدى يا ضناى ، خدى
أدى قرش • حتشتري بى ايه ؟ كراملة • • وحمص • •
ومصاصة • • وبسكوت كمان ، تقرقشيه لوحدهك
وماتديش منه لحد • • انت عايزه تنزلى فى الحارة
دلوقتي ؟ طيب انزلى ياختى • • خلى بالك من السكة • •
مسافة السكة وتيجى على طول •

فى همس حميم ، والعروسة تصفى وتبتسم ،
وجهها المصنوع من الخرق منور وضاح ، وتسلم نفسها
للحضرن الرقيق •

- أمه عايزه قرش ، أمه هاتى • • هاتى قرش • •

فى ضراعة وخفوت وتردد ، ولكن بثقة أيضا ،
فى دل من يعرف ان اللحظة حانت والقطاف دنا ،
وفى مكر .

— يوه هو انت يابت الى عليك اسمه قرش ، خلاص
علقت . . طيب ياقرشانه انت ، طيب . روى ياللا . .
قدامك على رخامة البوريه فيه قرش آه تحت المفرش .
آه يابت . خديه ياختى وانجرى على تحت امال . .
ما أنا عارفه . بس اوعى تعوقى . . خلى بالك من
السكة .

عينها تتبعان البنت ، ثم تنهض ، خفيفة ، وتستند
بيدها الى الأرض ، ومس الحصىرة الخشنة المشبكة تحت
أصابعها يثب الى راحة الكف ويصطدم بها يدعم وقفتها
اذ تستطيل على بنيان قدها الطويل ، على عمودى ساقيهما
المضلتين يتسدل عليهما ، من هينكل جسمها الوثيق
الملفوف ، ثوب صيفى من « زمش العين » يتخايل تحته
قميص فسدى خشن النسج ولكن مخبوك ، قصير ، الى
سمانتى الفخديق .

وهى ترفع الحلة المغطاة بيد ، والموقد المطفأ فى
اليد الأخرى مازالت بطنه ساخنة بعد ، وعدته السوداء
منداة بالجاذ اللاذع الرائحة ، وتوازن بينهما فى سهولة
جاءت عن مرانة طويلة . عينها فى المحجرين الأسمرين
الداكنين تتبعان البنت تتداداً فى مشيتها وتهتز على

عظامها الرقيقة أذ تجرى الى باب الفسرفة ، ومنها الى
الطريقة ، ثم الى السلم الضيق المعتم المكتوم .

فى قلبها موجة خفيفة الاهتزاز من الحنان نحو هذه
الحطة الصغيرة من أحشائها . هذه الجزاة الحية منها .
وحدها الآن ، مستقلة بحياتها الخاصة وان كانت من
كبدها ورحمها . ثم هى صورة غريبة أخرى من أبيها .
فولة وانقسمت فلقطين . الفم الواسع المدرب الحساس ،
والسنتان الناتئتان . . .

شفتها تعرفان ضغط هاتين السنتين الناتئتين .
وابتسامة ترف حول ركنى فمها . شفتها تتلامسان ،
كأنما هى تستطعم الدم الذى انبثق منهما مرة ، فى
الليل ، قبل أن تولد ماجده . الليالى القديمة العاصفة
المتقلبة بالهوس الساطع فى الظلام ، حتى يهدم بهما
عباب الأمواج المتراكبة المليئة ، ويصلان الى المرسى .

جاءتها من الباب المفتوح ضجة الجيران فى الطريقة ،
والزعيق ، والنداءات ، والدعوات على الأولاد مقصوفى
الرقبة هو انت مش حتهمد يا واد بقى ؟ هو انت معجون
بمية العفاريت . . الهى ياخذنى ويرىحنى منك يا محمد
يابن نفيسة .

وحنفيات مفتوحة وعمود كثيف من الماء ينصب
ويصطدم بجدار سطل من الصفيح ، وينثال الماء
ويتسرب من على جوانبه ، والخيشة تدفع السيل على

بلاط الطرقة الى السلم • هذه نفيسة أم محمد تكد في
الكنس والمسح والطبخ والتسوية والغسيل طول النهار،
وسلفتها نجبية متربعة جنب الراديو أمام الشباك طول
النهار تسمع الأغاني المائعة — المقروضة في جنبها —
وتلعب بمعقول الشبان في الحارة من وراء ظهر زوجها •
عقربة ومستخبية ياخواتي • وبتخرب على الناس من
تحت لتحت •

كان يقرض قلبها دائما شك ، لا يستند الى أدنى
أساس ، في ان مقصوفة الرقبة تلعب لزوجها أيضا
بالمين والحاجب ، ولا تراعى حق الجيرة والعشرة • هو
جدس لا قوام له في الحقيقة التي تظهر للميون ، لكنه
جدس لم يخنها قط •

وأم محمد تهتف فجأة مرتاعة :

— يوه بسم الله الرحمن الرحيم حاسبى يابث
يا مجدة لتتزحلقى •

وباب السلم يصطفق •

تدوى الخبطة فيرتج لها قلبها، وفي طرف من أطراف
هذا القلب المرضوض خشية من أن تستيقظ ماجدة
مفدعة من حلاوة نومها في أول الصبح • الرجل يتركها
دنياها ، وحدها مع البنت ، ويمضى متوترا بالغضب •
والسترة الجلدية الداكنة تلف الظهر الوطيد وتحيط
بالكوفية المعلقة حول العنق الركين • • أرض الطرقة

تهتز تحت الخطوات القوية بالسخط والشباب والاستهتار . وكل يوم يصبح على هذا الحال ، ولا يعود الا في آخر الليل ، عيناه محمرتان ، والرائحة نفسها ليلة بعد ليلة ، تتشبث بملابسه بل بعضلات صدره وذراعيه أيضا ، وتحت الابطين وفي خفانيا أركان الجسم . رائحة فيها حلاوة خافتة تكاد تنقلب لها المعدة تفوح من الفم بشفتيه الساخرتين المنفرجتين دائما عن الأسنان الحادة . واذ يعود في النهاية يقر لها قلبها مع ذلك ويرتاح من خوفه ويضطرب أيضا بالفيظ والحنق .

— هي الفلوس التي بتروح على المدعوق ده مش فلوس ؟ طب أعمل ايه بس لو مسكوه ؟ ابقى ساعته اروح فين وأجى منين ياخواتي ؟ ياختي . . . الشر برة وبعيد . والعيله دي ابقى أعمل فيها ايه ؟ يعنى آخرتها يسيبها في أرابيزي يبقى يا فرحتى يا هنأى . . !

تسرب ما ادخرته من أيام الشغل وشقاء الشغل . سحب منها القرشين بخلاصة كلامه وسحر أصابعه . ومازال يطلب منها المزيد . كأنما لا تكفيها وزيادة بالوعة البيت التي لا تشبع ، ومصاريف الطفح الأكل التي تقصم الظهر . وهو كل يوم سبت لا يكاد يرمى لها ما يلم أطراف البيت على بعضها البعض . وهاتي هاتي يابت الكلب . . حتى الصيفة باعها من زبآن ، وحججه لا تنتهى ، وضعيها على المحروق الذي لا ينتهى ظمؤه اليه .

وما زال فى ظنّه انها تخبىء عنه بقية ، وما زال
يذاجيها ويناغىها مرة ويعنف بها ويعصف مرة •
يطاوعها ويلالئها أو يتنكر لها ويسب الدين والملة ،
يجهد أن يستقطر منها الصباية الأخيرة بالمحايلة أو الخطف
على السواء • كانت قد أفرغت ما لديها بين يديه منذ
أمد طويل ، ولكنها تتركه عن عمد يستشف من نبرة
صوتها أحيانا ، أو من كلمة نافرة كأنها أفلتت عفوا ،
انها ما زالت تكتنز شيئا فى حرز جريز ، وان كانت لن
تسلمه كنزها • فلو تيقن انها صفر اليدين حقا • •

هل هى خدعة تلك التى تقيها هى وبناتها ، وتحمى
بيتها ؟ أليس لديها فى الحقيقة كنز آخر ، وهى تحببه
وتحرس بابه ؟

لكن يديه الخشتين وأصابعه القوية الدقيقة
المفاصل تعرف أسرار ما تعالجه فى أحشاء السيارات
طيلة النهار ، تجوس فيها وتجسها وتظل تتحسس
جوانبها ومساراتها ومساكنها ، وتلائم بين أطرافها
وتدق على جدرانها وتلحم المتفرق من شعثها وحديدتها ،
كأنها تعمل لها « عملا » أو تتلو عليها رقية حتى تهتن
بالحياة وينبثق الطنين فى المعدن الموات وينبعث له
هرير وهدير دفى منتظم الايقاع • • يداه لن تطولا
كنزه الآخر ، يداه مضمومتان عمياوان • والكنز تحت
يديه • يداه لا تعرفان بابا اليه •

— وهو فيه عينين تشوف غير الزفت الى بيحرق فى

قلبه عمال على بطل ليلاتي على الله ، آهى وكسة من كل
ناحية و خلاص *

لكن ثمة جانبا رخيا موطا الجناح فى دخيلة نفسها،
فيه رضى وأمن ونعمة • هنالك فى ركن منها ،
صحيح ، توق غامض وأمنية خفية ، لو خلف الله
عليها بولد ، وخيبة صغيرة لأن ما جاءت به بطنها بنت
مكسورة الجناح • لكنها بنتها وحبيبتها وأغلى من الدنيا
عليها • ولسانها مع ذلك يلهج بميلة البخت • كأنها
تصد العين ، كأنها تمويدة تقولها بطرف اللسان حتى
تدارى قوة شريرة تتربص بها بأذان متشوفة تتسمع
وترهف السمع ، تنتظر لحظة الانقضاض لتخطف ما بقى
فى يديها •

وأحسست ما ينخسها فى قلبها ، شكة ثاقبة من
خوف أسرعت بها الى الشرفة المزحومة المتراكبة ، تتخطى
السلال والمواعين والقفف لترشق الحارة بنظرة عجل
ملهوكة •

كانت الصغيرة قد خطفت السلالم المتربة الموحلة
بماء الفسيل وتخطت العتبة الحجرية القنديمة التى
تأكلت ونعمت أطرافها وانغرز جانبها فى تراب الحارة •
ودلفت تجرى ، مستوفزة فرحة بقرشها ، كنزها
الصغير يدها تعرق عليه منذ الآن، من الفرحة والتشوف •
ونفذت من جنب لوحة العيش على جافة الرصيف الضيق،

وانفلتت من بين قفف الملاف الموصولة ، فى عتمة
المصر ، بأكوام ملونة من العدس الأصفر والرز والبرغل
والذرة •

وهى تشب الآن أمام دكان السجائر ، تطاول
الواجهة الزجاجية المتربة وترفع يدها بالقرش •
تعلقت عينها بالمسرجة الصغيرة الموقدة أبداً بلهب
ضئيل احتاط عليه غلاف علبة « بلمونت » حمشت النار
أطرافه ، فاسودت ، تنبعث له رائحة شياط خفيف
مستمر •

تسحرها دائماً هذه الشعلة الضيقة المدخنة التى
لا تنطفئ ليل نهار •

— أيوه يا شاطره ساكتة ليه ؟ عاوزه ايه يا ست
الحسن والجمال انت ؟

كان قد اختطف منها القرش قبل أن تتكلم ، فأفزعتها
فجأة حركته وضراوتها وخشيته ان ترجع عن عزمها •
— مصاصة • •

— عيني حاضر • •

وهو يدفع بيديه وسط أكوام الثروات اللامعة فى
الورق الناعم الملون ، والأواني الزجاجية التى تحتشد
فيها كل الأشياء الحلوة فى العالم • وقد تحيرت البنت
وتلدت قلبها من الرغبة فى أن تضم الى صدرها كل هذا ،
حفنات حفنات • وغشيتها الأزمة التى تعتورها فى كل

مرة تأتي الى باب هذا الكنز ثم ترتد عنه وليس في يدها
الا نتفة صغيرة من أطرافه لا تتحيف منه شيئا كأنما لم
تمسسه قط ولم تقف ببابه * سرعان ما تنجاب عنها
الفاشية اذ ترجع الى الحارة ومعها ما اقتنصته لنفسها ،
فاذا هو العالم كله ، حلو الآن كطعم المصاصة التي يتحلب
سكرها في فمها المضموم * أبطأت خطواتها أمام دكان
العلاف وظهرها الجاف النحيل يحثك بالقفف اللينة وما
فيها من أكوام مطواعة هيئة الجوانب * وعيناها تجولان
على راحة وفي مهل وباستمتاع بين المشاهد الدسمة
المليئة حواليتها * على مهل ، فليس هناك ما يعجلها *
شفتها مزمومتان تحتاطان بالجسم المدور الأملس الذي
يشر بالحلاوة في جوانب فمها ، عيناها مشدودتان
مزويتان من المص والمتعة ، تلفان في تؤدة وفي غير
توتر ، بين جنبات عالم لدن طرى ، على دكاكين العجلات
والزيات وبياع الفول والموقد المشتعل يفح في الشارع
أمام باب النجار عليه كوز الغراء تفوح منه رائحة الصمغ
الثقيل والتراب وعطر السكر الرخيص وشوب النار *

ارتفعت عيناها الى المئذنة الضخمة الشاهقة ،
والنقوش البارزة عليها متربة عتيقة ولكن راسخة
يتحدد بها نسيج السماء الأزرق الصافي الذي خلا من
من سطوع النهار ، وبقيت فيه وضاعة عميقة ، وشرفات
المئذنة تعلو متدرجة بأضلاعها الرشيقة تلوح كأنها
مركبة على السماء لا انفصال بينهما *

وهي في الشارع المزدحم ، مسنودة الى الحائط
الحجري القديم ، وقد نسيت كل شيء الا هذه اللذة
الهادئة الآن بعد عنفها الأول تقطر حلاوة بطيئة في
فمها ، وقدمها الحافية تفحص التراب الهين على صخر
البرصيف . ثم دفء نهار انقضى يتسلل من حجر الحائط
الى عظام ظهرها الهشة من وراء الفستان القديم .
وعيناها سارحتان متعلقتان بالمئذنة وفي جيبها حضور
غامض لأبيها ، فارجا طوالا راسخ القامة عاليا .

بالأمس أعطاها قرشا اشترت به « كراملة » .
بالأمس استيقظت في الليل في عالم مضطرب مهتز
وأجست كيانه القوي المتين جنبها ، بينها وبين أمها على
سريرهم الجديدي الوحيد . وفي نوم ليس كاملا ،
بتجربة كأنها الحلم ، ابتعدت عن الحائط والتصقت
بالظهر الشاهق ورمت بذراعها الواهية على الهيكل
المتمكن في نومه يملأ دنيا حلمها تتردد فيه أنفاس
منتظمة . وعادت الى نوم مريح وقد سكن قلبها تبتسم
من الأمان .

رأت من باب الجامع شيوخا يروحون ويجيئون في
الطريقة المبلطة النظيفة يتحركون ببطء كأنهم في النوم
أيضا ، رؤوسهم عارية يلبسون قباقيب وجلاليب بيضاء
في العتمة الخفيفة ، يأخذون الماء ، في كوز مندى ،
من الزير المدور المكون جنب الباب . . « والله . . أكبر
. . الله أكبر » المئذنة ينزل منها صيوت بعيد يشدو

بدعاء طويل كأنما لا أمل فيه وفيه نشوة بالشكاة وراحة
اليها ومعرفة خفية .. وزحمة المغرب في الشارع
الضيق ، أخذت تلمع فيها أنوار مضطربة وضجيج
مختلط من صلصلة أجراس العجلات وغناء البياعين
وصيحات بائعي الزبادى البيتى وتنغيمات الشحاذ وهو
يقطع الشارع من وسطه كأنما الدنيا كلها ملك يديه ،
وفي يده ولد يردد بنغمة رفيعة ملحنة « عليك يارب ..
عشاننا عليك يارب .. » الأجر والثواب عند الله
يا محسنين »

والضجيج البعيد المضطرب يجعل الغرفة الضيقة
تموج بالخوف والوحشة ، جيطانها تتباعد وتنفتح بينها
مسافات لا آخر لها . صيحات أبيها الغاضبة تأتيها من
آخر الحلم ، ودعاء الشحاذ وترديد الولد « عند الله
يا محسنين » نحن في المغرب أو في الفجر ؟ نداء
لا ينتهى يجيء من وراء خصاص الشباك « يا ..
غورت .. الله أكبر .. يا .. يا محسنين .. أكبر »
فتدفن رأسها فى المخدة وتحس السرير يرتعش ويصطك
تحتها وتغمض عينيها ، تزيد من اغماض عينيها عن
عمد ، بشدة ، كأنما بذلك تحجز نفسها عن السمع .
وأما تحبس البكاء فى ركن بعيد من الابعاد التى
لا آخر لها . وهى تفوص فى الليل الملىء بالظلال
والاصداء المتحركة القلقة .

وتفتح عينيها فى العتمة ، على اهتزاز السرير ،

ويتجمد جسمها على الفور ويتوتر • انها ميتة • وتسمع
 فى الظلام وفى موتها وشوشة وهمسا حارا وأصواتا
 فيها لذة كأن أحدا يستقطر بين شفتيه حلاوة مصاصة •
 هى ميتة ، ميتة • وتضغط على عينيها حتى لا تنفتحا ،
 فان الميتين يكونون مغمضى العيون لا يتحركون أبدا
 متخشبين • وخشب السرير يهتز على أمواج رتيبة •
 وفى موتها المضطرب المفلق العينين تسمع شكوى طويلة
 « الله - أكبر • • الله • • أكبر » • هل يجدونها فى
 الصبح ميتة ؟ وتولول أمها وتندق خدودها وتملأ الدنيا
 بالصريخ ؟ سيجدونها ميتة فى الصباح • والشيوخ
 البيض الجلابيب سيصبون الماء الدافئ من الزير على
 جسمها العارى ، بالكوز • ماء ساخنا على جسمها العارى
 الممدد على البلاط فى طرقة الجامع ، والهواء تحسه باردا
 على جلدها المكشوف ، يهب عليها من الباب •

— ماذا • • بت يا ماذا • • مصاصة أنا تمان • •
 عاوز مصاصة •

التفتت الى الشيء الصغير الذى يتوثب جنبها ويشد
 يدها المرفوعة الى قمها بالمصاصة • وعلى وجهه الملطخ
 بالتراب خيوط نظيفة من دموع مازالت تتقطر من غير
 صوت •

— يوه مالك يا ولد يا محمد ؟

— ندية ، خالتى ندية ضربتنى • •

يحكى عن حدث مضى ، بسبيله الى الاختفاء منه
الآن .

تأملته فى غير عطف ، دون قرابة .
دائما تضربه نجية زوجة خاله وتطرده لأنه يلعب
فى الراديو وينحشر فى الشباك ، ويعطل عليها .
وتنقلب الدنيا بينها وبين أمه نفيسة ، وتثور عركة
ترتفع لرب السماء . لكن الدموع تتسلسل من عينيه
دون بكاء ومازال يشهق بانتظام .

ألقت ماجدة بذراعيها على كتفه الصغيرة الواطئة
تحس نفسها قوية عالية . وتحسه يحتمى بها ، عظامه
الرقيقة فى الجلباب الفضفاض تهتز مازالت من شهيق
البكاء ، يستند اليها كأنه من خرق طرية لا تعرف
الرفض .

وهو يتطلع الى ما فى يديها من حلاوة تعوضه عن
غضبة العالم وضجيجه .

وانفتح فى نفسها عمود مندفع من ماء الحنان
يفيض على الوجه الذى يرتفع اليها وضيئاً بالثقة .
فأعطته المصاصة مندادة بمد من ريقها كما تعطيه
جزءا من نفسها .

وتلملم الولد تحت ذراعيها وتفلت منها واستدار
عنها قليلا ، وقد استغرقه مص الحلوى التى كادت
تنبرى وتنسل من خشبتها الرفيعة . شفتاه لهما حياتهما

الخاصة ولغتهما الخاصة من التلمظ والتذوق الجشع
مزمومتين رقيقتين متحركتين • شفتين مدربتين حديث
عهدهما بالشدى الذى ينز بأمل قليل وعذوبة عصية
على الاستنباط • ولاح لها ان وراء هاتين الشفتين ثمة
سنتين ناتئتين تضغطان من الداخل على جانب اللحم الحى
الذى يستقطر السكر ويزتعش باللذة •

— ياما •• جدة •• يا بت يا ماجدة يا بت ••
هى البت اتخسفت فىن يا خواتى ؟ هـو انت اتربطت
خلاص يا بت انت فى الحارة ؟ يابـت يا ما •• جدة ••

وجه أمها مظل عليها من الشقرة الضيقة الملتصقة
بالحائط ، مدورتها مغبوكة على رأسها ، اللهفة والخوف
يتنازعان قسماات الوجه الأسمر المضىء فى قتامة المغرب ،
خزيانة من وجهها المكشوف فى الحارة وصوتها على ذلك
يتعدد ملء المغرب بدفع أنشوى كثيف لا تمتلىء به
الا أصوات الأمهات الشبعانة بالأمومة •

ثم اذا هى فجأة وحيدة •

الحائط الذى كانت تستند اليه بعيد عنها ،
وما حولها فراغ •

وأدركت دفعة واحدة ، أحست لحظة واحدة قبل
أن ترى بعينيها ، ان الولد قد ذهب • انه تسلسل من
جانبيها ، ان ذراعها لم تعد ترتكز على هيكله المشدود ،
انه لم يعد محتاجا اليها • ان أحدا لم يعد محتاجا اليها •

ثم التقطته عينها ، دون بحث ، كأنما كانتا
تعرفان لوحيدهما الاتجاه الذى انسل فيه الولد دون أن
ترياه يجرى بخطواته القصيرة المتلاحقة وسط الحارة
بين زحمة الناس المتدافعين ، وجلبابه الأبيض الطويل
تتمثر فيه قدماء الحافيتان المتداخلتان وهو يتخايل
مبتعدا بين العتمة والأنوار •

تعجرت رجلاها فى وقفها ، لم يخطر لها أن
تجرى وراءه • • وباستطاعتها أن تلحقه فى لحظات •
كأنما انستها الخيانة مقدرتها على الحركة وآحالتها
عمودا من الملح •

ولأول مرة أحست يدها صفرا خاوية وفى صدرها
فراغ هابط الفور ليس له قاع • كأن الرضة التى
صدمت قلبها شلتها أيضا • وقد جف ريقها ، وفى فمها
طعم الخشب • الضجيج حولها يعتمد بسرعة ويهبط الى
طنين يأتى خلال طبقات مسدودة ثقيلة من تحت الأرض •
وبيوت الشارع تسقط مرة واحدة والمئذنة العالية تميل
الى السوراء مع كتلة حائط الجامع كله ، الجدران
والدكاكين والأبواب الصامتة تفرق وتهرب منها •
وحدها ، هى وحدها • عيناها جافتان مشدودتان الى
النقطة البيضاء التى تجرى هاربة منها فى الزحمة
تحمل شيئا لا عوض عنه •

وأما مائلة الى حاجز الشرفة ، قلبها مشدود من هذه
الصدمة الصغيرة المضحكة التى أصابت البنت • خطف

الولد منها مصاصتها وجرى • مضحكة هذه الحكاية •
لكنها تعرف ان هذه القطعة الصغيرة من نفسها ، واقفة
هناك بجمود فى الشارع ، انما ترتعش الآن بما ينبض
به قلب واحد ممدود داخل الأجيال جميعا وعبر الناس
جميعا أطرافه مشدودة حتى آخر فتائلها ، مغروز على
مسامير ، مفتوح فى الهواء ، ترتعد شرايينه العارية
الرقيقة بالدم السخن تخبطه صدمات لا تنتهى ، ويظل
يرجف حيا •

• وهى تستند بكوعها الى الحاجز الخشبي ، والشباك
الى جوارها فيه تلك المرأة جنب الراديو الذى ينصب
منه غناء طويل رخيص البكاء •

نسيت خجلها وانه عيب أن تطل مكشوفة الوجه فى
الحارة ، واعتمدت خدها بيدها وعيناها هى أيضا
معلقتان بالولد الصغير الذى هرب منها ، أخذ المذاق
الحلو من فمها وجرى • كان قد تسلل يستشرف النظر
اليها ويشد يدها • وابتذلت له قلبها واحتاطت عليه
بذراعيها وحضنها ترعى نارا صغيرة تشتمل فى عينيه
الضيقتين ، تحترق بها أطراف نفسها • وعطيتها له
متعة لها مع ذلك وسعادة • لكنها الآن يتدافع بها الناس
فى الزحمة •

يداها لن تنضما عليه قط • ذراعاها لن تلتحما
أبدا حول أركان جذعه العضل الشامخ • بل تقصران

عنه وتسقطان الى جنبها • رجولته وعقوقه واستغناؤه
تهزم امتدادها اليه •

وهي تنهد وتسقط في الداخل • صلابة الأرض
تتلقاها وقد غاضت من جسمها كل عصارة • الحصيرة
ترتفع الى لحمها فتصده بخشونتها وتوقف انهياره
بثباتها الذي لا يرتج • والظلمة في الحجرة الخاوية
تنبثق فيها ظلال قوية من أعمدة السرير الحديدي في
أركانها الشاهقة تسد السقف الذي يتصاعد ويبتعد ،
الى أعلى في الظلام ، وما زال يبتعد ، في سماء قاتمة ترتفع
بسرعة ، وحواليها أثاث حياتها الرث ، وأنية حبها
وحبوطها مائلة على جنبها مثنية الأطراف • تحتاج
اليه • تحتاج اليه • هي تحتاج اليه •

لكن البنت الصغيرة لا تحتاج الى أحد ولا الى شيء •
وجهها الصبياني فيه كبرياؤه • وهي واقفة في الشارع ،
بعيدة • سوف تعود لأمها بعد قليل وسوف تجد
عروستها • وأبوها سوف يرجع آخر الليل ، ويعطيها
في الصباح قرشا ، وعملة صغيرة أخرى من الحب ،
لكنها ليست بحاجة الى شيء • وهي عندما تنظر الى آخر
الشارع ليس في وجهها نضوج ، ليست فيه خبرة
وليست فيه حتى نعمة النضارة ونعومة الطفولة • ولكنه
ليس متوترا بل فيه فراغ ، شاحب قليلا أبيض في
العمتة ، تحت شعرها الاسود الكثيف المسرح • وجه
أمسح ، خاو ، جامد ليس فيه دموع •

القاهرة ٧ فبراير ١٩٦١

الأميرة والعصان

انكسر العمود ، وندت عنه دقة واحدة ، نهائية •
وانطبقت الظلمة ، والدهشة • تهاوت عظامه على
الأرض ، طرية ، كالماء ، تجتذبها الرمال المتربة القدرة
المتماسكة • وعندما فتح عينيه كان السقف عاليا جدا ،
بعيدا ، بقماشه المسود الصفيق ، متهدلا بين عروق
الخشب المائلة ، ساقطا على العمود المربع المفتول •

لم تكن هناك نسمة هواء • وفوق الصخب والضجة
والنور ، كان في السقف ثقب صغير اسود تبرق فيه ،
من بعيد ، نجمة وحيدة. صلبة ، عين قاسية • والفرق
ينثال من بين ابطيه ، خيطا ساخنا جديدا ، والأرض
خشنة تحته بحبوب الرمال والتراب الدقيقة الخضادة •
والفحيح ما يزال يزار كالمعتاد ، عن الكلوب الضخم
المدلى ، شرسا ، على رأسه • سحابة مسدودة من الناس
تتجمع حواليه بسرعة ولا تنهمر ، ولهم طنين ، يحدقون
به من كل جانب ، كالتاموس الكثيف تحت شمس ظهر
حار • ومن ورائهم موجات متراكبة من الضجيج

واللفظ ، لا بلل فيها لشفثيه ، تنكسر على هذا البسور
من الأجسام المنحنية عليه •

لم تكد تمر لحظة واحدة • هادئة تماما ، خاوية ،
لم يشاركه فيها أحد ، ولا شيء • تقوض فيها هيكل
كل شيء • صدمة الألم لحقته فجأة ، زلزلته مرة واحدة ،
وغمرته ، وأغرقتة ، ثم انحسرت عنه • وتركتة مغسولا ،
أبيض • ضربات الطبول توقفت ثم عادت ، وموسيقى
النحاس تصطفق • كانت عيناه صاحيتين ، وهو على
الأرض ، لا يحس الآن ألما ولا دهشة • وجلبة الناس
حواليه ، يشورون ويتصايحون ، ضوضاء لا صلة لها
به • وحواليه فراغ كامل ، فجوة له وحده وسط زحام
متكاثف مكتوم ، وهو ينظر اليهم بعينين لا غيام
فيهما •

دخلوه من هنا • حاسب • تليفون للاسعاف • فيه
دكتور هنا ؟

الاسعاف جاى • اعملوا معزوف والنبي • لا سليمة
الحمد لله • مات يا عيني الجدد • يا حرقه قلب أمك
يا خويا • بصوت ناعم هادىء مدفون • سليمة • ماردش
منطق • سليمة • ان شاء الله سليمة •

دخلوه هنا ، الاسطبل من هناك • حاسب •
اعملوا تليفون للنجدة • والطبول تخبط ، لا تدق له •
طنين الذباب الأزرق الكبير فى شمس الضحى العالى ،

وتحت وجهه حس فتائل الخيش الخشنة ، والتبث ،
والتراب ، برائحته الجافة المصوحة الحريفة فى الشوال
تحت صفحة خده وفى أنفه وفمه • وهو يتقلب ، ويفتح
عينيه فى عتمة صباحية يحيط بها قماش خيمة الاسطبل
الكابية القديمة • وسُلطان يزفر فى معلاق التبث
تحت خطمه ، وينفخ فيه الهشيم الأصفر الدقيق
المتطاير مع الغبار والذباب فى حزمة الشمس الساقطة
بين فجوات القماش •

يدق الأرض فى توفز ، بحوافره القوية ، وساقيه
الأماميتين المخروطتين الرشيقتين • ومن ورائه الخيل
الآخري مربوطة فى أوتادها المرتفعة ، فى آخر الخيمة •

الساعة كم ؟

عشرة • • احدى عشرة • • غسيل الخيل الآن ،
وتمشيتها فى الحوش • دبدة الأرجل حوالى الاسطبل ،
وشتائم السياس واللاعبين والمروضين والعيال ، من
الخارج ، مكتومة ، نبحات الكلاب الدقيقة الثاقبة وزئير
السبع العجوز ، أجوف قصيرا خاويا ، مع صلصلة باب
القفص •

وهب يجلس على فرشته وظهره يطلقطق من وجع
النومة على الأرض الجافية • يلعن ديك دى بلد ، لم
يطلعوا منها حتى بثمان العلف • مازال على مولد سيدى
البدوى شهور • ربك رزاق كريم • مولد امبابة ،

ومار جرجس ، والمنصورة ، وسيدى الدسوقي ،
والأسواق ، وموالد القرى ، هدة حيل من السفر والقيام
والحط بالسكة الحديد واللوريات وآخرتها نفس النومة
على الأرض فى كل مكان • أم لعل العجوز ابن الكلب
يريد أن يأكل حقنا • جار ونار فى جتته • بس يشغلنا
سايس وبلدياتشو وبياع تذاكر وصبى عالمة ، مفسل
وضامن جنة كمان • والله لو ما السبت لميرة • نهايته
الأرزاق على الرزاق •

يا فتاح يا عليم على وش الصبح • وتوقفت عيناه
فجأة على العصافير ، وجميد • كانت العصافير تثب
وتزقزق فى خفوت ، بين سيقان سلطان الرقيقة السامقة
وأجنحة الدباب الأزرق الكبير التى تعكس شعاعا
بنفسجيا زاهيا ، وتنقر بعظام أفواها الدقيقة أكوام
الروث السوداء عليها الكرات الجديدة الصفراء الساخنة
التي يتصاعد منها بخار خفيف ، وتنط على التراب
والتبن ، صغيرة متوترة بريشها الرمادى الداكن فى
غيش الخيمة فى الصباح ، تفترق وتلتقى على العلف
والتبن وبين جرادل الماء وفرش الغسيل ، وتسقسق
بصوتها النحيل بين المجارى المتعرجة التى خطتها على
الأرض مياه بول الخيل • والرائحة النفاذة تنوقد
وتشعره بالفة وأمان ، بأنه فى بيته ، بين هذه الأجسام
العضلة الحية التى يستمد منها جوهر حياته ، لا يستغنى
عنها ، والبطون المستديرة الضخمة تنبض أمام عينيه ،
نبضاتها السريعة •

وصهل سلطان فجأة ، ورفع خطمه الميل الذي علقت به نثارة التبغ وتطاير منه رشاش سريع ، وجاوبته بربرة متلاحقة من صهيل بقية الخيل ، فتواثب الصافير في لحظة ، سحابة صغيرة من الريش الذي يذف والشقشقة الثاقبة المذعورة ، الى فجوة ضيقة في قماش الخيمة الممزق رشقت أنفسها فيها في انطلاقة مسددة لا تخيب . وضحك ، ووقف ، يحك أنفه من التراب ، وفي فمه جفاف القيام من النوم في الضحى العالي ، يستشرف سخونة طعم الشاي وسلساله الطيب على اللسان وفي قصبة الصدر ، ومد يده يطامئ توترا ساخنا جافا من وخم النوم الدافئ ومن رائحة أجساد الخيل .

طالما نشقها من استدارات طرية أخرى ، من حنايا اللحم اللدن تحت ما يوه الشغل الساتان الأبيض ، في ضوء الكلوبات الحار المشبع بالتراب . وسط الموسيقى النحاسية الجمجاع ، وهدير الناس على مقاعدهم الخشبية ، وهو يتدحرج ويلعب نمرته في الليل ، والساقان الخمريتان الصلبتان على ظهر سلطان قائمتان ، من رخام لامع ندى مسنون ، يحملان جلال الدنيا وطراوتها ومجدها . وقرقعة السوط المرفوعة به ذراعها الملفوفة الناعمة . نضيرة بلمعة العرق ومتوترة ، عالية في الهواء ، ودورات سلطان الضخمة الرشيقة المتسارعة باطراد ، حول الحلقة ، وهو تحته وجنبه يتقلب ويجرى ويدور ويثب ، ويلطم وجهه من الخوف والاعجاب فتترامى اليه الضحكات الخشنة التي ينفرج بها

توتر الناس أمام خطر الدورات المبريئة المحسوبة ، وأمام
الفتنة المتحدية التي تقطع الأنفاس من المايوه اللامع
المحبوك ، والرائحة تغزو جسمه الآن ، ويتوتر لها ،
أميرة ، أم سلطان ؟ حريفة ، لاذعة ، بها عطن حلو من
نفح العرق الانثوي ، وذكرورة الخيل معا .

ويفجؤه الصوت الخشن العذب ، صوت بنت البلد
الذي يصدر عن حرية كاملة ، دون أدنى كف لما يحش
فيه من غلواء شبابه :

هو ابن الكلب ده لمبه ما قامش . انت لسه نايم
يا واد انت ؟

مالك واقف مبلم كده ياد ؟

هم شف شغلك بقى يا بن ال . بنبرته المملوطة ،
وسيطرته ، ودلاله ، ومعرفته بأنه لن يرد ، وثقته التي
لا يعتورها شك بأنوثته اللينة . وهي تنحني لترفع
قماش الباب ثم تتركه ينسدل ويحف التراب .
ويحيطهما ، مع الخيل ، حضورها الحميم الحار في
الخيمة المقفلة ، وتولد الحياة في الجسم الفتى ، تحت
الجلابية الرجالي الواسعة المشمرة الكمين التي تحب أن
تلبسها في الصباح .

الله - ما بلاش شتيمة على الصبح يا ست أميرة ،
يا فتاح يا عليم .

باححتاج من يعرف انه ليس هناك ما يحتاج عليه .

ما احنا قايمين أهوه • ما تصلى على النبي امال ياست
الكل • نهارك حليب ان شاء الله •

يا صباح الفل • طقوس معايشة الصبح التى تفتح
أيامه وتحليها •

فل ايه يا واد اتنيل على عينك • ما تبطل لماضه
يا واد ، نهارك أبيض يا خويا ، هم يا واد بقى بلاش
لكاعة • بسخرية حميمة اليقة فيها رضا ، ولا مبالاة ، وقد
وضعت يدها تضغط على عنق سلطان التلماء العضلة ،
فراح يحمم ، بخطمه المبلول ، فى يدها الأخرى الممدودة
بقطعة السكر تحت شفرتى فمه الغليظتين المرتجفتين ،
وعينه متسايلتان من الحب • وهى تلقى اليه بنظرة
بينما ينحنى يللم الفرش وينفض معلاق التبن
ويصطدم بالكيزان ويرفع الجرادل ، بساقيه الهزيلتين
السوداوين الناصلتين تحت لباسه الأصفر الواسع المتهدل
الى ما فوق ركبته والبلوفر القطن الحائل الاخضرار
على فائلة نصف كم اهترأت رقبتها ، من تحت البلوفر
المغضن ، حول قفص الصدر الناحل المدور •

ويهرش شعره المجدد ينفض عنه نثار التبن ويحك
منه تراب النوم ، وسقطت يداه الى جانبيه ، ذراعا
ضاويتان متسختان لا قوام لهما • وسلطان بجلاله
الرشيق يدور ، يدور بسرعة ، يتزو صاعدا وفوقه
النصب القائم الجميل ، لامعا ، متوترا فى توازن ثابت

ولكن حرج رقيق ، مشحون بحياة متفجرة مكبوجة معا ،
والتوتر فى حواف المايوه الأبيض يتألق تحت ضوء
الكلوب ، وينطفئ ، ويتوهج بألف لون ، يعلو تم
ينخفض ، وهو ينظر برأسه المسبوكة المنحوتة الى مواقع
حوافره التى تعرف ايقاع دقاتها على الأرض ، ويفلت
منه وهو يجرى حواليه ، يدور ويتقلب على الرمل
المفروش الترايبى ، وينكفى على وجهه بحركاته التى
حذقها حتى كاد ينساها .

ومازال سلطان ينفلت منه ، يسبقه ، وفوقه أميرة ،
يقتحمان المدرج الخشبي ، يلف مرة أخرى ، فى الهواء ،
جسمه الأشهب المشوق يخترق الناس المتحلقين الساكتين ،
يدور بهم ، وفيهم ، يمر من خلال الألواح الخشبية الرثة
المتمايلة ، ينفذ عبر الأفندية بالجاكيتات الضيقة الكتفين
على الجلايب الأفرنجي ، والمعلمين بكروشهم الراسية
وقفاطينهم الجوخ الغالية وشيلانهم الزاهية الحريرية ،
ويثب على دكك الترسو المكظوطة بالجلابيب والطواقى
والمعم والملايات اللف * على ثبج ظهره العارى المسبوك
الأملس عمودان من مرمر منحروط ينهضان بالجسم
السامق الذى تهتز فيه أمجاد العالم ، فى الساتان
المحبوك ، فى سورة ساطعة ، بلا صوت * السوط فى
يدها تلتوى انثناءاته السريعة لسانا حادا نهما ملتهما ،
دون قرقة .

لماذا سكنت الطبول ؟ الآلاتية فى التخت يدقون

ويخبطون ، وأقراص النجاس ترتطم وترتعد بين اليدين
المحمومتين ، فى ذبذبتها الكهربائية الخاطفة ، ولا صوت .

الأفواه محيطة بالأبواق تمسكها مسيكة خبيثة
لا تريم ، الرقاب منتفخة الأوداج من عزم النفخ ،
ولا صوت .

سلطان يدور ، فى تصميم لا يبالي شيئا الا دورانه ،
وأمية ترتفع حتى تكاد تمس قماش السقف الاسود
الداكن ، فوق الكلوبات التى تنثر بنور شرس ، ثم تهبط
فى وسط الناس بين عواميد الأخشاب المتشابكة ، من
خلال الدكك الظولية الدائرية المتأرجعة ، يحملها
اندفاع الحصان الذى يشق أمواج الصمت والوجوه
الصلدة الصخرية ، وزخمة الأجسام المتلاصقة لا يند
عنها حس ، ولا صوت . نواة صلبة من عناد مغلق
متحجر ، فى غور الأحشاء الطرية المبللة المرتجفة بالدم ،
لا تند عنه آهة . غاشية متملكة تطوف بقضبان الضلوع
الخاوية دورة بعد دورة ، حول البذرة الجافة ، تسمو
وتسوخ بها الأرض .

فى البؤرة جيشان مكبوت يهم بأن يلفظ نفسه ،
ويمجها ، ويصده اصرار ما ، ويصدق به تماسك العظام
الحرج ، فى وسط الحلقة الدوارة ، عمودها قد انكسر ،
ولا يسمع له صوت . حفيف النفس يلهث ، ولكنه يعمل
بانتظام . مركز ثاقب من النور يجرح ، يجرح العيينين ،

ابرة مرهفة السن مفروزة بثبات فى خدقتى العينين
المفتوحتين ، لا تطرفان • كحل يخطط بالعينين الحلوتين •

ما أندر العيون الحلوة ، وطفاء ، أهدايها: تفرش
على الخدين الاسيلين القمحيين ، فيهما خجل ومعرفة
نضرة بعد وعميقة معا ، عروس جديدة بفستانها البمبى
برقبة مكشكشة ، تحت الطرحة السوداء ، وعقد كبير
أصفر الحبات ، وعصبة الرأس بالمنديل تبدو تحتها
قصة الشعر السوداء الناعمة ، والى جانبها زوجها الفتى
بوجهه الناحل الحشن المجذور الجاف ، وعينيهِ القلقتين ،
عمودى فى جلسته المخرجة ، جلابيه ببوشها لم تغسل
بعد ، رقيقة النسج يتطاير بها الهواء على أوتاد متراكبة
من خشب عظامه ، وطاقيته بفتة بيضاء مزهرة •

يجلس فى توفز يشى بارتباك مدوم ، والبنت
بجانبه دسمة طليعة ، تدور بعينيها الحلوتين المكحولتين
فى الناس ، تنظر اليهم لأول مرة كأنما انجابت عنهم
— لا عنها — غشاوة عذرية كانت تحجبهم ، فهم يسبحون
الآن فى ضوء كاشف متغلغل ، وهى تراهم الآن بعين فيها
خبرة جديدة •

وهو يتدحرج مع العينين بين سيقان الحصان
الوثيقة المدمجة التى تطفر بلا صوت وتشوح به فى
الهواء ، على كتفى البنت الصغيرة السمرء ، بوجهها
الجائع ، وصدرها الأمسح الضيق ، فى قستان العيد

المجعد المغضن الثنيات، ترفع ذراعها المصوصة الطينية،
بنصف كم ، تنزلق عليها غويشة زجاجية لامعة ، وتعلق
برقبة أب عجوز مخدد الوجه ، ناتئ مشدود الجلد على
عينين محترقتين ، تحت طاقيته الصوف الكايبية .

البطن الأشهب المستدير ينبض فى دورته ، يفوص
فى مياه الوجوه ، يشق السطح ويهبط بلا نفس ، وفى
اهتزازات المياه الشفافة . شنط مفتوحة متدلّية تستطعم،
فى وهم حسى ، مذاق عجيب الجسد المشدود وقبابة
الخمرانة ، وكوفيات ملتصقة برقاب مختنقة . الحوافز
الصلبة الدقيقة تدق فى الهواء ، وترسم ايقاعاتها
الهندسية المحكمة ، فى عطن الملاءات اللف القديم
المشدود على نفسه ، يلم عطب نصف العمر ، فى وخامة
دفع تفه ألعظم لا حرافة فيه ولا حلاوة ، لم تعد منه
جدوى .

العينان المدورتان اللامعتان الذكيتان مصوبتان الى
الولد الذى يضحك ، دون صوت ، فترد عليه البنت
الشقية الممراح بابتسامة صافية ، بدلال ، وتدفعه فى
صدره ، وهى تفتح فمها وتغلقه ، تومض أسنانها ،
تشتمه وتضحك، بصمت ، تمتمة شفاه فى قراءة صلاة ،
على حصر ناعم محاط بأعمدة حجرية بيضاء وشبايبك
زجاجية منقوشة بأشعة شمس أرايبسك .

الرقبة الشماء شامخة تنتهى بمعضلات وطيدة عند

أركان الصدر العريض المتين الأساس ، تمزق كثافة
الناس بأعداد فينه كل التمكن والجلال • وهو يتقلب
معه ، يقوم بشغله ، شأنه كل ليلة ، عيناه معلقتان
بنجمته الشاهقة ذات الأشعة القوية الراسية القواعد
على متن موج أشهب وثيق العضل ، تطير في الهواء ،
وتنقلب - هذه لعبتها المخيفة الرائعة - على ظهر الحصان ،
وتعتدل على الفور من جديد ، مشدودة ثابتة ، وتخطف
أنفاس الناس ، ويدوى رعد التصفيق والضجيج ،
وتعود تدور ، وتنقلب من جديد ، وإذا البنيان يميل ،
أهون ميل ، ويتضعع - لحظة واحدة أو أقل - وقلبه
يرتكض في جوفه ، من اللهفة والفرح ، ويتطاير هوجا ،
وهو يندفع في لهوكة مجنونة وتصميم لا يعي شيئا إلا
انه يبذل نفسه فدى ، يقيم من جسمه السفساف الضامر
صخرا أمام الموج المتحدر المتهاوى •

هل استقام البنيان المتقلقل ، واعتدلت على عودها
سارية الشراع ، أم انصهرت الدعائم وتسايلت في
زلزلة عارمة جرفت أمامها نقاضة السد الضئيل ؟ لم
تنتفض به إلا انطلاقا رمت به تحت أقدام كل المجد
الذى فى حياته ، الذى فى الحياة ، يقيه - بكل ما لديه -
من خطر التقوض والقردى •

وكل ما لديه لا تبدو له أبعاد ولا أوزان ولا ضخمة •
لا يعرف لا يخطر له أن يعرف ان كان شيئا كهبة غبار

تسف به نسمة هواء أم ضلعا من جبل يملأ حيز الوجود
كله ، جلدا راسخ المتون • الناس فى ماء جمودهم
الصفيق المصقول ، يهددهم الخطر وتهوم بهم سحابة
استغراق كامل مبهوت ، وما من شاهد على هذا التفلت •
الذى طوح به ، هذا النزوع للاستشهاد ، دون شهادة •

تدحرج البلياتشو • على الأرض مرة أخرى ،
درجة رثة ، لم ينتبه اليها أحد • ولم يتحرك • ومضى
سلطان فى دورته ، وعلى ظهره المارى صرح ثابت ناعم
عال من جسدها المنتصر الذى ومض حجره الأبيض •

ساق رقيقة ممشوقة مشدودة العضل ، متفجرة
متنزية بحياة لا ردة لها ، ضربته ضربة واحدة ، أم
وقعت الخيمة كلها ، وانقض العمود ، وسقطت السماء ،
وجندلت الأشلاء ملمومة فى اطارها الذى انقسم ،
وهيض ، كأنها سليمة لم تمس ، طرية كمجرى من الماء
النزر على رمل قليل ، سريع الى النضوب • وشمس
صغيرة قاسية تحدجه ، فى الصمت ، من غير دهشة •

ينفجر كل شيء بالصوت فجأة ، فرقعات البمب فى
الخارج ، وقصف الطبل الضخم ، رتيبا أجوف ، يرن كل
صدى له فى احتشاد مليء ، وقرقة الصنّاج النحاسى
وهزيمة المرتعش ، وانطلاق البوق فى تموج كثيف يسد
المسامع وأزيز الكلوبات سرب هوام متقد مستمر
لا ينتهى نه احتراق • وسع يا جدع ثلاثة بريمو عندك •
فتح عينيك تأكل ملبن •

وهدير الأصوات فى لجة مترابطة الأطراف ثقيلة
القوام ، وضحكات انثوية متخلعة وتحديات متحرشة
واثبات الجدعنة بصوت جهير ، وجلجلة السبع العجوز ،
وحممة الخيل ، والكلاب توقوق خائفة بصيحات
صغيرة ، وأنفاس التراب تحركه الأقدام وزحمة البهجة
بالمولد تطن وتدور فى سحابة من دخان مشاعل النيران
ومصاييح الغاز على عربات الترمس وكهرمان الحمص
المدور الصغير وحب العزيز اللحمى الأشعر وأزيز
مزامير الفوازى وزممة المواويل الطويلة وغرغرة
النراجيل ونشيش عدة الوشم على الأذرع والصدر
والصوت المبحوح يجاز فى قلب الغمار فتح يا جدع
الرجا الابداع من السبوعة الى معاه عيل يمسكه فى
ايدى المروضة المصرية العالمية تدخل على الأسد البنت
المصرية تشكم الأسد يا جدع وتلعبه فتح عينك وصلى
على النبى ملحة فى عين الى ما يصلى على النبى الست
داخله على الأسد يا جدع •

وتعليق بذىء وضحكة مقرقرة طويلة متحشئة ،
ودقات الطبول قد جنت وفقد النحاس كل ايقاع وعاد
رعدا مقعقعا متعاقب الخبطات متواليا محموما ينتهى
الى سكتة غائرة عميقة جوفاء ، ثم فرقعة السوط ،
وصفقة باب القفص يصلصل بالقوائم الحديدية ، وقد
احيط بالبنت والأسد فى وسط القضبان • الكل
يصقف •

الى يحب النبى يصقف يا جدع • ومطرة متناثرة

القطرات من التصفيق لا اقتناع فيه وان كان فيه فرح ،
وهيصة •

والزئير الواهن العظمى له صدى بدائي مسحوق ،
دورة مذعورة أمام العصا والكرباج ، رأسه مائلة منكمشة
ونظرته المنطفئة مثبتة بالتهديد المائل أبدا ، ثم وثبة
كقط منهوك على الكرسي العالي وقد استراح من تعب
اللف والدوران ، والعرف الملبد بالقذارة والتراب متدل
على ضلوع نحاسية صدئة معفرة •

وهو يدور ويتقلب على الأرض ، يدخل القفص من
خلال القضبان القائمة ويخرج منها • كأن الحديد
المنصوب خطوط مائلة في ناظريه وحدته ، وهم مشقق
لا يراه أحد غيره ، ويصفق بيديه ويلطم وجهه في رعب
مصنوع لاستهلاك الناس ، وأعجاب موضوع الخطة ،
وضحكات قليلة تصل اليه ، ونفحات هذا الكائن ذى
الآلف وجه والآلف عن والآلف يد يملأ خيمة السيرك
المهدلة المحتشدة بأنفاس بدائية أعمق وقعا من الزئير
الأنجوف الخشن المبجوح •

يستفزه ويستفزه هذا الجمع الوحشى الذى يتملظ
بتهديدات متهاونة الأركان فيريد أن يثبت له شيئا ما
لا يديره • فهو مع الأسد وزمجرته ، وتحت سيقان
الحصان ، ومع البهلوانات ، ووراء الراقصة ، وحول
الحلقة ، وعلى طول العلبة وعرضها ، يقفز ويقع
ويتدلدل ويندلق ويتدحرج ويتدأدا فى هرولة

ويتدربا ويبرك على الأرض جامد الوجه مصبوغا يتهاوى
وينط ويجرى فى دربة ويتشيطان ويعوج خلقتـه
المرسومة بالأبيض والأحمر للصفار والكبار ويطفح
الدردى ، بلقمته ، فى الليل والنهار •

عندما فتحت عيني ، على سهيل الحصان وحممته ،
كانت تقف على رأسى فى الاضطبل ، كانت قدمها فى
الشبشب المفتوح تدفعنى فى جنبى ، بأصبعها الكبير ،
توقظنى وهى تشتم شتيمتها الصباحية المألوفة ، وثورة
عاتية من صدمة اليقظة وألم الدفعة فى صدرى تهزنى
وتمخضنى وتضطرم بجنونى ثم تنفثىء فجأة وأنا فى
خدر اليقظة المضطرب •

وكانت واقفة فى العتمة ، فى رائحة الدفء
الحيوانى الساطعة الكثيفة اللاذعة ، والجلابية الرجالى
تسقط على ركبتيهما لتؤكد ملامسة مدورة ناعمة فيهما ،
وقدمها اللدنة ، بعظامها المكسوة المبطنة ، مرفوعة فى
حركاتها السريعة ، بيضاء منبثقة ، بحياتها المتحركة
المشدودة ، من عتمة الجو ، ومن العتمة الداخلية الأخرى
للثوب السابغ المنسدل •

رفعت رأسى من النوم أحس انى أموت من اللهفة ،
فى داخلى عصفور محبوس يتخبط فى ضلوع صدرى ،
أصابه سعار انطلاق لا سبيل اليه ، وجهى يتقلب على
خيش المخدة المحشوة بالتبن والهشيم ويتمرف مرة أخرى
— كم مرة ؟ كم مرة ؟

على خشونة الخيوط الجافة المتربة ، ويتلمس -
عبثا ، بلا جدوى ، بلا طائل - رقة بيضاء فى بطن القدم
المكورة المسحوبة ، فى فجوتها التحتية الحميمة الناعمة .

ومن الغلام يتقلب ثنايا عجين آخر متخثر وعطن ،
والبت عزيزة زميلك قد نضت عنها فستانها رمش العين
النبيذى وألقته عنها بسرعة وبلا اهتمام فى حركة آلية ،
كما تفعل الفلاحات ، وارتمت على الأرض ، تريد أن
تخلص وتفرغ من الأمر من غير عطلة ، ووضعت الورقة
أم خمسة شلن فى مخبئها بين ثدييها الممتلئين ، ورفضت
أن تخلعه .

زفرات الخيل النائمة ، فجأة ، تطس الرذاذ على
التبن ، والذبول تخبط صفحات الكفلين فى توفز ، تهش
شيئا فى حلم الليل ، وخيشة الفرش الخشنة تتلقى
العجينة المسكوبة على الأرض وطوايا اللحم مازالت
عالقة بها رائحة البودرة التى تفرش بها كل امتدادات
جسمها كل ليلة قبل الرقص .

طنين الهوام والبعوض الصغير تحت نار الكلوب
الوحشى النهم . وقد تضرجت ، وزوقت كل بضاعتها
المتراكمة للعيون ، يا قشطة ، أيوه كده يا مهلبية ،
أموت أنا ، نظرة يا حلو لاجل النبى . وهى ترقص ،
على وجهها فتحة ابتسامة منسية ، وهو يتقلب ، من
ورائها على الحلبة ، تحت ألف عين ، وحواليها ، طول
الليل يتدحرج ويهرج ، يستجدى الضحكات النثرة ،

ويطيب لكل النمر ، من الأسد للراقصة ، من الكلاب
للحصان للبهلوانات ، بوجهه المرسوم بالأبيض والأحمر ،
بيكاء مصبوغ دائم ، وينطلقون مهمل مرقع بكل الألوان ،
وضحكات الجمهور وهتافاته البديئة ، مع موسيقى
الرقص المتراخية ، كأنها هي أيضا تؤدي واجباً ،
بلا حماس -

وهي تدفع بساقيها الثقيلتين ، وترفع قدميها
الحافيتين من على التراب ، في غير اقتناع ، تهتز
وتثنى ، رازحة ، وهو يثب ويقع ، يؤدي شغله ،
وجهها المتضرج المزوق فريسة للنور ، يحواجبها المسوحة
المرسومة من جديد بخطوط سوداء ، وكحلها الثقيل ،
مازال حول عينيها المفتوحتين الجامدتين في غبش
الاصطبل بقع متقطعة من السواد - وبقع الأحمر
المستديرة على وجهها تلمع ، يا زميلك ، اوعى السوستة ،
شفاه مصبوغة لحيمة تحت النور القاسي ، بلون قان
كالدم اليانع يتجاوز شفتيها المفتوحتين الى أطراف الفم
الملوث ينضح الدم المتجمد ، ولغت فيه وشبعت ،
وصدرها الضخم المترجرج يكاد يثب من بدلة الرقص
الساتان الصفراء الفاقعة ، وهي تلف بذراعيها
المدملكيتين ، حول ظهرها ، طرحتها الشفافة السوداء
المشغولة بالترتر الأحمر ، تخفى أطرافها الممزقة بين
يديها ، وقد علق بها تراب أبيض باهت -

أصوات رشقات غليظة متلاحقة من ألواح البريمو

من أكواب الشاي الأسود الزارد وقرقرة مياه الجوزة
والصوت المبحوح يجار في قلب الغمار فتح يا جدد
ودخان المعسل وهدير الكلام وضجيج السيرك والمولد
معا يكاد يفرق الموسيقى النائمة المتباطئة ، وصبي
البوفيه يقرقع بملعقته في كوب الشاي على الصينية •
والعرق قد ساح بالكحل وسال بالبودرة على ثديها
وجوانب خصرها المتين ، يخط خطوطا خميرية لامعة على
الجسد المكتنز المبذول للأعين والشفاه التي لا ترى
ولا تجد فيه طعما •

وقد فرغ دورها وخرجت ، حافية ، قدماها تحتكان
بالرمل والتراب ، دون أن ينتبه أحد ، والأضواء على
الحلبة انطفأت ، وجاء اليها وهي تنهج ، وما زالت على
وجهها ابتسامة دم منسى داكن ، ولف حولها الروب
الأحمر الرث ، دون تصفيق ، فلم يستعد لها أحد ،
والناس في عنقوان الليلة يقومون ويتحركون ويلفطون
والجوزة والقهوة المضبوط والشاي الكثرى تدور
وتتلقفها الأيدي والشفاه في الاستراحة بين الألعاب •

وأحسن كتفيها تحت ذراعيه وهو يحيطها بالروب ،
كأنه يحميها ، ضئيل وراء ضخامتها الساكنة ، ملطخ
مبلها لا أحد ينظر اليه ، وبينهما فهم مفاجيء دقي ،
سرعان ما مضى ، ولم يتكلم أحد : فهذا من ضمن الشغل ،
عليه أن يلبسها الروب وهو يهرج ، لكنه الليلة صامت ،
قد أهمل شغله ، ونظرت اليه نظرة واحدة ، غريق

يستغيث دون صوت ، من عينيها المدفونتين فى الكحل
ولحم الجفنين المترهل والتجاعيد المكتنزة الملوثة بالألوان
البدية بالمرق الدهنى ، ثم انطفأت النظرة وغاص
الغريق .

وهو الآن وراء الست أميرة فى الاستراحة ،
الاستراحة ليست له ، يدور ومعه صور باهتة الزرقة
مطبوعة بالحجر بالحروف الثلث ، البهلوانة العالمية
أميرة تروض سلطان الفرس العربى الأصيل ، وفى يدها
طبله ورق تهزه فتجلجل صناجاته الصغيرة وفى يدها
الأخرى صينية يلقي الناس فيها بالقروش التى ترن
والأوراق المطبقة أو المفرودة المفضنة يكاد يطير بها
الهواء وابتسامتها متملكة أمرة كأنما تقتضى حقا
وتتأدى ديننا ، والمحافظ الجلدية الصفراء تخرج من
العب معلقة بالدوبارة المتينة وتنفرذ طية بعد طية
ليستخرج منها الشلق الفضة أو القرش البرونز أو أم
عشرة المطبقة أربع تطبيقات متوازنة ، وهو يسلم
صورة ويهش الأولاد المتدافعين عليه ، وهى لا تكاد
تنظر الى الفلاحين أو الأفندية ، بل تنتقل بخطا رشيقة ،
فى المايوه الأبيض اللامع المطرز بالترتر ، وسط ركाम
الجلابيب والملاءات والققاطين والبلاطى التيل الكالحة ،
ومن الناصحين من يقوم قبل أن تصل اليه ، ومنهم من
يتشاغل فى حرج وعيناه لا تستقران على شيء .

وهى تستند الى ألواح الخشب وترتقى السلالم

المتأرجحة ، حتى وصلت الى العسكرى الضخم المفتول .
والشرائط الحمر على كفه الأصفر ، يجلس فى البريمو ،
راكز الأركان ، متين المنكبين ، فى عنقوان رجولة
مسيطرة وصولا لا يخافت بها ، وهو لا يكاد يلتقى اليها
بنظرة ساخرة من عليها هيكلة المحتشد بالقوة والغلواء ،
نظرة اعجاب صريحة فيها الدعوة والسخرية معا ، نظرة
ثور قوى وذكى أيضا ، يعرف استجابة أنثاه المحتومة .

درت حواليتها استبقها كأنما أدعوها أن تمر ، فما
فى هذا البغل من جدوى - ولن يعطينا شيئا ، وقد
فارت نفسى وأجهشت واعتمل فى صدرى الذعر واللجج
معا ، ولكنها تلمس كفه بيدها ، برقة ، وتهز الرق ،
وعندما استرقت النظر اليها رأيت التواء قمها بحركة
احتقار مدربة ، كبنات مصر ، حركة تحرش واستفزاز
واستجابة ، تستنفر وتتحدى ، وتعد بمجرد التحدى .

ومد يده البغل ببطء الى تحت الأزرار النحاسية
اللامعة واستخرج قطعة بشلن ، ورماها الى الصينية ،
فرمت هى اليه بعينيها ، وأحرقتنى العينان - لدعة لهيب
منبثقة بطول أحشائي وعرضها ، شريط كاو أحسست
جوفى يستشيط منه وتنسلخ منه مزعة متقدة بالنار .

وقالت له ، كبنات مصر ، بهمس : مرسى ، من
أعماق عينيّن مثقلتين مضطربتين ، ومالت عليه ميلا
لا يكاد يحسه أحد ، وان كان فيه دفء غريب حميم ،
وهى التى لم تشكر أجدا غيره ، مهما أعطاها ، وطول

الليل اتقلب وأدور ، فى حلقات من الظلام والجنون
لا تنتهى ، ألف قطعة من نار مؤرثة الأوار لها حرقه
لا تنطفىء ، ويهجم فى نفسى ويوغر صدرى ألف
خاطر مجنون عقيم يتحطم امام صلابه صماء مسدودة ،
ويكىث كالأطفال ، بحرقه بكاء الأطفال ، بلا أمل فى
ان أحدا سوف يفهم أبدا ، فى استسلام كامل لنفظة
الدموع ، ولم أخجل ، وفى أنفى وقلبى رائحة التراب
الجاف - من أنا ؟ لا شيء - لا أحتكم من خير الدنيا على
شيء - صحيح اننى دائما مفتوح العينين ، لسن طلق
اللسان ، صوتى فى الجلبة مشروخ مبوح ولكنه أعلى
الأصوات ، ثم هانا فى الليل ، معدم ، عريان - يعوزنى
كل شيء - ولكن لا يعوزنى أننى أحبها -

هذه ثروتى ، كنزى - لا شيء - عبيط وأبله -
وحدى - ووحيد - أمام ثروات الخيل النابضة الجسيمة -
وعظامى مكشوفة للهواء ، مفككة ، لا يربط بينها
شيء - فى مرة قالت لى : اشمعنى مع البت عزيزة زميلك
بتشتغل بقلب ، ومعانا بتلف كده زى المسطول ،
وبتشتغل من غير نفس ، بطل بقى وساخة يابن الكلب ،
ووجدت نفسى أبتسم من ورائها وفى داخلى عريضة
مكتومة من الفرح ، وحس سعيد ان عندى شيئا له قيمة
تطلبه ، وتفتقده ، تظن انها تفتقده -

من هذا الذى يئن من أعماق أحشائه ، كأنه
مضروب فى قلبه بسكين ، ضربة الموت -

أنين غائر غريب ، فى الخواء • أنين لا يقصد به
شئ • لا ينادى محبة ولا عطفًا ، لا يريد يدا تمتد إليه
أنين خافت ، خاص ، حميم ، بينه وبين نفسه ، عقيم ،
يصدر من جوف الأرض ، من تحت طبقات لا نهاية
لغورها •

أنين محبوبس مكتوم لا يدعو شيئًا ، لا يعرف
شيئًا • والموسيقى تضج حول كل شئ ، تهيب الأرض
لآخر لعبة • والولد الصغير يمدد جسمه على البساط ،
والبهلوانات ، فى شبابهم وقوتهم ومرحهم ، يعابثون
الولد ويجربون قوة احتماله ، فسوف تتكوم عليه أثقال
البهلوانات جميعا ، ساقاه الرفيعتان وبطنه المتهافت
سوف تطبق عبء كل هذه الأجسام الفتية بالحياة
والعضلات •

أبو جلمبو صغير وبائس ورث ، خرج من الماء ،
وسوف تقوم على صدفته الهشة أعمدة العظام المتوترة
تعلو فى بناء يتهدد دائما بالسقوط ، والقوقعة الرخوة
تستमित فى التمسك بالأرض ، وتعد نفسها لمثونة
احتمال أثقال هذا البرج على القشرة الرقيقة القابلة ،
فى كل لحظة ، للانكسار • ولكن أخته تثب فجأة من
فوقه ، الى الحبل المشدود ، طفلة أنثى تتلوى على حافة
الهاوية ، بملابسها العريانة الصغيرة ، فتائل الحبل
وحدها ترفعها فى الهواء ، فى الضوء الفسيح ، وهى
تنحنى ببطم ، وتميل ، وتثب فجأة فاذا هى نائمة

متشدودة على الحبل ، أعضاؤها المنهكة منبسطة ممددة الى
آتقن خدود الامتداد على الشريط المهتز الرفيع ، ثدياها
البرعميان النابتان يرتفعان من منحدر الصدر النحيل ،
تغوص السماء .

وهى فى حركة تمددها على الحبل تتلوى ، وتلتصق ،
وتتطلب ، كأنما تمتص من هذا الشريان الملفوف
عصارة البقاء ، تنزح عنه آخر استنفادات الحب والماء
النزر الذى يظلمأ اليه عودها الأخضر الخام الغليظ
الملمس ، ثم يدق الطبل دقاته المتلاحقة ، ويتقاطر
التصفيق فى غير حماسة ، فى تردد وانتظار .

ويعد المشهد المضحك الأخير ، وهو يسرع فجأة
فيشتد البساط الناصل القدر من تحت الولد ، ويقفز
الطفل فيعطيه صفعته المعتادة ، ثم يعود فيرتدى على
قاع الأرض ، ويعلمو صخب الناس وعجيج الموسيقى ،
والناس قد حميت دماؤهم من لفظ المولد وسورة المعسل
والشأى وامتلاء الفم بعجين الحمص وطعم الحلا الحاد ،
بالسمسم والسودانى . وصرخات باعة الكبد ولحمة
الراس والبمبار من وراء القماش ، كل واشبع واقرأ
الفاتحة للسلطان .

دوى أمواج المولد المتلاطمة فى خارج خيمة السيرك ،
مع هيمنة حلقات الذكر المتمايلة ولهاثها ، ومزامير
المواويل ودفوف المداحين التى نشطت ولجت بها نشوة
جامحة ، ورقصات الغوازي قد امتلأت بها الأيدي

والعيون ، وفاضت ، وهمهة نيران المشاعل على عربات
العرائس الملونة بأجنحتها الوردية المفضضة كفراشات
مزوقة حجرية العيين ، مستديرة ببطونها اللامعة من
السكر الأحمر .

ودقات البمب وخطبات العاب الحديد ، فى
حميا آخر الليل التى تكاد تصل الى ذروتها ، ودوار
الدخان قد اتصلت حلقاته . وسوف تنطفئ الأنوار
قريبا والجذوات الملتهبة فى حلوق الفخار التى تفتح
بدخان المعسل ، وتهدم قرقرة المياه المحبوسة المضطربة ،
وتخبو المشاعل على عربات الترمس والحمص والبلح ،
وتغدو رمادا خشنا لا يحيا . يقظة متوترة أخيرة تحتاج
كل شئ ، انفعال متوهج ، وتطلب حميم قلق مشعوف
الأصابع لا يقع على شئ ولا يمسك بشئ . والولد
الصغير يمهّد لجسمه الناحل نومته المشدودة على الأرض ،
يحفر بصفحتي كتفيه مستقرا وطيدا للانقال التى
سوف تتركز عليهما .

ويتلمس الأرض تلمسا وثيقا مدعوكا ، يمنح
منها معينا ضئيلنا من قوة مدفونة ، ويدفع نفسه ،
متمددا ، متوترا ، مغروزا على التربة الصلبة التى سوف
تصد عنه الانهيار ، وتتلقى وطأة البنيان المشيد المقام
على عظمه ، فى الهواء .

والأجسام تتراكب فجأة فوق هذه القاعدة التى
تبدو هشة رقيقة ، الصدور مبسوطة ممتلئة الأشربة

تقاوم الزلازل ، واندفاع الحياة صاعدة نحو السماء ،
يهددها خطر لا يتزاح .

تطوع استحالة ، وتتفطر أمامها النفس جزعا .
ودق الطبول ينصب الآن في انهمار حاد سريع ،
والسيقان والأذرع الأنثوية تمتد متقبضة مفتولة
وناعمة وعضلة بين خشونة هياكل الرجال وعظامهم
الوثيقة ، الأعضاء كلها متلامسة في نقط محسوبة
متماسكة ، تمتد ، وتستمد توازنها من بقشرة رقيقة
متوترة ملتصقة بالأرض ، تصعد أنفاسا لاهثة محكومة ،
تنمو منها سيقان وأذرع وأطراف مهتزة ممدودة متخلعة
مزعزعة وثابتة معا ، كحيوان واحد نابض قد تخلق
فجأة ، في لحظة واحدة .

ويقوم منتصرا ، في الهواء . لحظة واحدة ، من
الرشاقة ، والخفة ، والاكتمال . مجرد لحظة هاربة ،
من الثبات المتطاير الهفهاف ، يحلق منتصباً ، ناهضاً
على أعمدته الهشة القوام الراسية الجذوع . ريش نسر
واحد مبسوط الجناحين ، يقف ، مشدوداً في أعالي
أطباق السماء .

ثم يتضعضع ، ويتقلقل ، من علوه ، وتتخلع
أوصاله ، وينهضم . وينهار متهاوياً في زلزلة انقلابات
متفجرة وشظايا مفتتة تستذير في كل ناحية كأنها قطع
مكسورة منفلة من آلة هشة انسف محورها وانحطم ،
والطبول تصرخ صرختها النهائية مع صفقة النحاس

المدوية المرتعشة الأخيرة ، وهو يتقلب على جنبه ، وجهها
ينحنى عليه ، مضرجا لامعا من العرق ، مشرقا باهرا
كقرص الشمس ، عين لا تعرفه ، وجه لا صلة له به ،
صامتا فى بهرة الوحشة المتوهجة ، لا رسالة فيه ،
لا يقول شيئا • دهمه الوجه ، فى لحظة خارج الزمن ،
وأمسك به • حبه القديم يعصر قلبه حتى الجفاف
ولا ينتهى أبدا تقطره •

تدلى وجهه المعفر الملطخ بالأبيض والأحمر نحو
التراب ، كراس معلقة أمام دكان من دكاكين الجزارين ،
ساقطة الى أسفل ، مرشوقة بخطاف حديدى أسود ،
مفتوحة العينين • وجه نقاض منه كل نداء ، لم يفتح
على حرارة ما • وقد طويت عظامه الرقيقة ، مهدودة ،
على نفسها • ليست بحاجة الى شيء • وهم يدخلونه الى
الاصطبل ، الى دفء الظلمة ، والى الحنايا الوثيرة من
عجين الأرض الغنية ، وينفضون من حوله ، وأصوات
صفيرة تتنادى ، بحثا عن نجدة لا جدوى فيها ، لن تجيء •

القاهرة

٥ مايو ١٩٦٧

آخِر السِيكَةِ

حس الرمل تحت قدميه • هش ، طرى ، به بلل من
المطر الذى ظل يسح هينا طوال بعد الظهر • والى جانبه
يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة ، تلوح رمادية
مفتتة السطح ، من ورائها أغصان آثنية داكنة • وقطرات
ثقيلة من الماء تسقط ، من الشجر المتكاثر المشبع
بالرطوبة ، على الحجر ، وعلى رمل الطريق الضيقة ،
لها وزن أصم يتبدد بصمت ، فى عتمة المساء • لا يخفف
منه هواء البحر الذى يكتسح البيوت فى هبات مفاجئة ،
به طعم الملح • وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على
مؤخرة عنقه ، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم
وندى البلولة الجديد ، يجتمى من هجمة الهواء ،
وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة
الخضرة •

والطريق تنجدر بسرعة • وتنفجر خبطة مصراع
نافذة على حائط ، فى السكون ، بفرقة • فيرفع عينيه
الى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش فى النوافذ
الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث

فى الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل : داير السرير
الدانتلا الأبيض الكابى ، على قضبان حديدية سوداء
رقيقة معوجة ، صور باهتة من مجلات ، مثبتة على بياض
الحيطان ، مصباح عريان عشريين شمعة مدلى من السقف
بسلك رفيع ساقط باستسلام ، دواليب مائلة بالحقائب
والكراكيب .

وحركة جسمه المنحنى الى الأمام تتزايد قوة
واندفاعا بانحدار الطريق الى سلالم المحطة ، وكأنها
استراح من مضضيه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبي،
يحيط به افريزه المشبك على نسق أرايسك مبسط ،
يشع النور من خرومه الهندسية . وهو يراه من فوق ،
والقرميد الطوبى اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه
دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد
السقوط ، بعناد واهن ولكن لا ينهزم .

وهو ينحدر على السلالم العريضة ، المغطاة بالرمل،
الى رصيف المحطة ، أخيرا . والقهوة القريبة على
الرصيف مغلقة الزجاج ، دافئة من الداخل ، كثيفة
ببخار الأنفاس والدخان . وخطوط الترام تمتد
سوداء ، متألقة بقوة خاصة فيها ، بطاقة كامنة نائمة
ولكن متحفزة ، تنتظر العجلات المدوية المفرقة لتنبثق
منها دفعات الانطلاق الى عالم آخر جياش ، مزدحم ،
مفتوح ومنير .

• تأخر الترام •

وليس على الرصيف أحد غيره فى هذه المحطة التى تشتعل أنوارها له وحده ، وقد أوى الى الركن الخشبي الذى تفوح منه رائحة عطن قديم ابتعثته الرطوية وهواء الليل • وجفاف الرصيف الصلب تحت سقف المحطة يرضى حس قدميه تحت جلد الحذاء المبلل • وليس فى الجو برودة ، بل شتوية أكتوبر ونعومة سماء المساء المبكر ، العذرى ، مازال منيرا بوهج محمر توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التى يجرى بها الهواء سريعا صامتا فى مدار آخر • ونجمة وحيدة مشعة تجرى مع السحب ، تبدو وتختفى ، تنسرب فى بهجة حميمة مغلق عليها •

وأخيرا جاءت القرقعة البعيدة التى تؤذن بمقدم الترام ، يقترب بسرعة مليئة بشحنة مكتومة ، والنور البنفسجى الكابى فى مقدمته يتألق ويكبر ، والكتلة العلوية الضخمة فوقه كأنها آتية قبله ، مطلة من فوق ، مسدودة ، تنذر بتهديد غير مبرر ، والأنوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة ، وتتعاقب على جانبيه الطريق المتحدرين تحت حيطان البيوت وأشجارها •

واقترب الترام ، بضجيجهِ ونوره ، فى أول المساء ، بما يحمل من وعد متفجر • لكنه لم يتحرك ، كأن ارادة أخرى تفرض عليه وقفته الجامدة فى المحطة • وغض

الترام من اندفاعه ، وعبرت به قامة السائق وهو يدير عجلته فيوقف القرقة ويحيلها الى دقات معدنية تصلصل وتتتابع فى بطء ، ثم الى هدير أخير ، ونشيش يهبط الى زفير نهائى مرتاح ، وينفثىء الى صدمة الانقطاع ، والتوقف الكامل ، وسكتة لحظة الصمت . والهدوء تنبعث فيه فجأة أصدااء القهوة وحفيف ورق الشجر فى السكون الفسيح .

ومن السلالم الى الرصيف ، نازلة بسرعة ، تندفع . رشيقة ، خفيفة ، الى سلم الترام تتعلق به لترقاه بخفة . والهواء يطير بجانب سترة البلوفر الملقى على الكتف المدورة ، الرخصة المليئة ، ويدها ، بحقيبتها الصغيرة ، تمسك بالجانب الآخر من البلوفر تضمه الى ما تحت صدرها . ونور الترام يشعل شعرها السبط البنى المتوهج المتناثرة منه خصلة طائفة على جانب البوجه الأبيض الغامض المعالم .

نعمات ، جاءت فى اللحظة الأخيرة .

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماغه ، ووجد نفسه ، دون أن يدري ، على سلم الترام ، معلقا بالحاجز الخشبي الأملس الزلق ، قدمه على الحديد الاسود اللامع ، وقدمه الأخرى فوق ، على خشب الترام ، يكاد يحيط بها بذراعه ، قريبا منه نفح ملابسها وجسمها . هذا العبق الجميم الخاص الذى لا يكاد يتميز فيه رائحة ما ، ولكنه هناك ، فيه نفس ودفع يعرفه

معزفة وثيقة مباشرة ، يتغلغل فيه ، كأنما هو ينتظره
فى كل مسامه الداخلية البعيدة :

ويمد يده فيفتح لها باب الترام الزجاجى ، وتدخل
بحركة تلقائية دون أن تستدير اليه ، وما زالت
تنهج من سرعة اندفاعها لتلجج بالترام ، ولكن شيئاً ما
يدفعها الى النظر وراءها : يده الممدودة على الباب ،
توتر جسده بها ، البهجة البارمة المكتومة بها دماؤه داخل
أسوار الجسم ، ترجييه الصامت باللقيا بعد جمود
الانتظار ، شئ ما دفعها للالتفات بسرعة • صدمة
المفاجأة ، وانفتاح التعرف ، وبهجة الانتصار السريع
باللحاق بما كانت تجرى وراءه ، والعثور عليه فى
وقت معا ، والامتنان للمجاملة اذ يفتح لها الباب ، لعل
ذلك كله ، وغيره ، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها
اليانع الحلو ، وأزاح صلابة الصمت والانعزال ، فتنهمر
ملاحمها كلها فى ابتسامة المفاجأة والفرح ، وتستضىء ،
وتسطع بأشراق جديد ، كأنها وجه جديد :

— الله • • شوقى • • انت هنا ؟ كنت فاكرة نفسى
متأخرة •

— طيب نقول مساء الخير • • السلام عليكم • •
يونسوار أولا • • !

ضحكتها المرحه ، فيها الفة قديمة ، خافتة وغضة
وأنثوية ، وفيها لمسة من شقاوة ومعاينة :

— مساء الخير يا سيدى • السلام عليكم • •
بونسوار أولا • • أمرك •

يهمس ، حتى لا يسمعها الركاب الآخرون الذين
يثبتون عليهما نظراتهم المستطلعة ، الجهمة ، كأن فيها
منذ الآن تقريعا وتأنيبا وإدانة ، وهما يشسقان
طريقهما ، وهو يصطدم ، مع تارجح الترام ، بالقوائم
الحديدية اللامعة فى الممر الضيق ، حتى يصلا الى الجلد
البنى الداكن ، تحت زجاج نافذة مازالت تهمل عليه
نظرات متسائلة صافية ، من الخارج •

وجلس الى جانبها ، فى حرج طفيف من الاستقرار
والاستعداد للرحلة القصيرة ، تحت أنظار الناس •
والكمسنارى يتجه اليهما ، كأنهما هدف ، وعليهما
— عليه هو على الأخص — أن يتخلص من اسار هذا
القصد ، هذه النية التى تحيط بهما • فيدفع للكمسنارى
الثنى ، وتخرج هى بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها ،
يقف الترام ، وتنطلق الصفارة ، وتقرقع العجلات ،
وينطلق الحديد والكهرباء فى زفيف على خط الرمل
لطويل ، فى غبشة المسام المتزايدة ، ولا يركب أحد ،
فتنفرج دائرة الحرج والضيق ، وينفخ ضغطها • ويحتم
حسه ، مع هزات الترام الرتيبة ووقفاته واندفاعاته
المتلاحقة ، بوجودها الى جانبه ، قريبة جدا • جانب
معطفه يمس ساقها المسخوبة الرشيقة ، وهو دفأن فى
حسه بها ، على الجلد القديم الوثير ، ذراعه المتوترة فى

كن جاكنتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزء
من جسمها ، صدرها يثقل البلوفر الخفيف الطرى
بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلى المستدير ،
وهى تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة
وخفة فى شعرها الاثيث وتلفتت اليه بنظرة مسترقة
مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم .

ولا كلام عنده ، فى زحمة الضجيج الذى يمرور
بداخله بلالفة .

عينها ، عينها الغريبتان ، نافذتان على عالم
أجنبى ، بلونهما الأصفر الصافى ، مترقرقتان ،
واسعتان ، قطرتان من ماء أجاج على زجاج لامع ،
والخط الاسود الرقيق على الحافتين ، والظل الاسود
الخفيف على الجفنين .

ماذا تقول العينان ؟

— عندك الليلة شغل كثير ؟

تريده أن يتكلم ، لكنها لا تقول شيئا .

— أبدا ، ثلاث أربع ورقات تحاليل ، أخلص منها
وأروح للمحامى ، بعد اذن سيادة الدكتور .

— لكن سيادة الدكتور مش جاى الليلة ، أو يمكن
يبجى متأخر .

— بركة يا جامع . أهرب نص ساعة وأرجع .

ولا من شاف ولا من درى • انت سمعت حاجة ؟ عرفت
حاجة ؟

— بس بقى • • مش ختبطل تزويغ •

هل هى تعرف شيئا ؟ هل سمعت أحاديثهما فى
التليفون ؟ وهل سمعت أحاديث الناس ولفظهم ؟
بلا شك • نعم ، انه لم يقل لها شيئا صراحة • وهو قد
خلع الخاتم من زمان • منذ أن انجابت نشوات الأيام
الأولى ، واضطراباتهما ، ودفقات جنونها ، وهى تعرف
انه يعيش وحده مع أمه وأخواته ، بل تعرف أيضا
بيتهم من بعيد • لكنها تمسك أيضا بيدها كل الخيوط ،
ولا شك انها عرفت قصة زواجه ونزاعه وانفصاله ،
وهى على التليفون تستطيع اذا أرادت أن تسمعه يطلب
المحامى ويناقشه ، ويتفق مع الوكيل على المواعيد
والاجراءات ، وتستطيع أن تستخلص لنفسها الحكاية
كلها • ومرة واحدة سمعتها مباشرة عندما طلبته من
الخارج — على انه قد حذرهما الاتصال به على أى نحو —
وصوتها الانثوى الخشن العنيف • وعاكسته يومها ،
فى معاتبة تبدو بريئة كل البراءة ، لكنه لا يعرف ان
كانت محملة بالتضمينات والتلميحات ، حولت اليه
الخط ، وبعد أن أنهى مكالمته الصاخبة :

— الله الله ياسى شوقى ، مكالمات خصوصية فى
الشغل ؟

هل استرقت السمع يومها ، من على مكتبها من

وراء الحاجز الزجاجي ؟ كانت العيادة مزدحمة بأصحاب
التحاليل ، غائصين على مقاعدهم العتيقة المشققة الجلدة
فى المدخل المعتم المترب المرتفع السقف . وبعد انتهاء
المكالمة خرج وفى يده ورقة متعللا بأنه يبحث عن
المرجى ليعطيها له ، كأنما هى ورقة مهمة يتسرع
خاص . وكان الدكتور فى العمل أمام أنابيبه العنكرة
ومواقده التى تنز بنار محددة كاشفة ، وقواريره المليئة
بالسوائل الكثيفة والصفاية . ونظرت اليه من وراء
الزجاج ، وهى ترد على التليفون ، نظرة غائبة ،
ورفعت الخط وأوصلت الفيشة بحركتها التقليدية
الكفاء السريعة ، حركة بنت تعرف شغلها وتجيده
وتنفذه بفعالية تامة ولو كانت مغمضة العينين ، ليست
هناك . ولكن هذه النظرة البعيدة ، ونور الصبح ينعكس
من النافذة الجانبية على العينين الصافيتين ، الخاويتين ،
فى هذا الاتساع الأصفر الموحش الذى لا يطرف . . هل
سمعت ؟ التوسلات ، والتهديدات ، والدموع ، والاستنجاد
بالذكريات ، وابتعاثات حنان ضائع ، والتعديلات ،
وبكاء ندم لا يعرف ولن يستطيع أبدا أن يعرف ان كان
حقيقيا أم مرتجلا من وحى اللحظة - فهو حار وموجع
ولكنه أيضا قلب وختل ، هذا يعرفه . . وعليه أن يسد
قلبه أمامه ، والا فلا نجاة . وألجأته فى النهاية أن
يقفل السكة ، بعنف ، واحتدام مكتوم . فهل سمعت
الحكاية كلها ؟ حكاية توجع القلب . ولكنه سيخلص
منها قريبا . وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتت منه .

لا بأس ، المحكمة سوف تحدد لها النفقة ، وينتهى ،
ينتهى * وقد أعطاهما كل شيء ، أثاثها الذى اشتراه هو
بسهر الليالى وآلم الكتفين وانكسار الظهر وزيف العينين
من الدق على الآلة حتى الصبح ، شهرا بعد شهر ،
بلا نهاية * و « ورقة الضد » على نفسه حتى تأمن على
نفسها ، وضورها أيضا وخطاباتها الساذجة من أيام
الغزل الأولى القديمة الفارقة فى القدم ، كل شيء ،
فساتينها وملابسها وقمصان ثمنها : قشور النايلون
الملونة التى طالما أماطها عن ثمرات دب إليها العطب فلم
يعمد فيها الا لحم مهذل نضبت عنه سلافة المحبة
والتواصل * كل شيء أخذته معها ، وأخذت معها
جذاذة ضخمة مزعتها أيضا من حر نفسه ومن أطيب
أجزاء عمره ، اتندمل قط هذه الفجوة الفائرة فى لحمه
ويرم الجرح الذى نغل وضرب ؟ آيجف أبدا قطر المرارة
والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات ؟ وما
الجدوى الآن ؟ سممت أيامه ، وطينت بالوحل عيشته ،
نعم ، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن ، ثمن شهوته
وشفقته ، وجنونه وتمرده ، ومتعته المعجونة بالجنسند
الملوث الوثير * وقد دفع ، دفع ، فهل يخلص أبدا ؟

— ايه ده كله ؟ الى واخذ عقلك يتهنى به ..
وصلت لحد فين ؟

لن يعرف أبدا ماذا تقصد بهذه الكلمات ، وما
يشبهها * دائما تنكشه ، وتخزه ، بلهجتها التى تبدو

مجردة مستقيمة عارية من كل كثافة ولكنها تحمل ثقلاً .
لن يعرف أبداً ما رسالة هذه النظرات ، هذه الضمة
للشفيتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق
بعد ، أو لا تريدها أن تتخلق ، لا تريدها أن تتخذ
لنفسها صوتاً يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن
يواجهها ، أن يتعامل معها ، أن يمسك بها . ولكن هذه
الكلمة هناك ؟ أم هي وهم في ظنه وحده .

وفي سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوهماً ،
جرس طيب أموى يبره وينحنى عليه مهما كان فيه من
دعابة ومعاينة . واصطدمت يدها إلى جانبه بيده .
بعفوية ؟ صدفة ؟ لا يعرف . لا يعرف . لكنه يحس
هذه اللمسة التي طالت قليلاً - لحظة واحدة أكثر مما
قد يكون عادياً وتلقائياً وعفوياً - لمسة يدها بيده من
على « الجيب » الصوفى الثقيل الوبرى ، من على
الاستدارة المليئة . هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة
مرت كاللمحة ، واختفت ؟ أم ليس فيها شيء ؟ ما معنى
هذه الاصطدامات العذبة التي ما تفتأ تتكرر ؟ هذه
اللمسات التي تجيء - دائماً - كأنما عن غير قصد ؟
من الأصابع الرقيقة المرهفة العظم ، في زحمة النهار ،
والعمل ، والمواصلات . مرة عندما يعطيها ورقة تحليل ،
كانه يهبها شيئاً ثميناً وكأنها تتلقى الهبة . وعند
صعود السلالم ، صدمة اليد باليد على ثنية البطن
الطرية ، خطفة زمن هاربة ، على مشارف عالم مليء
بوعود نشوة مصفاة . وحس النهد الطيع على ذراعه

عند المرور فى طرقه ضيقة ، لمسة لا تكاد تحس لكنها
خصيبة ، ووثيرة • عابرة ولكن كأنها لا تحدث فى
الزمن ، ونظرة معها فيها دهشة وسؤال ورضا وعمق
لا يسبر غوره • • ما الكلمة التى لا تريد أن تنطلق ؟
ما الرسالة التى لا ينفك رمزها ؟ أهناك كلمة ورسالة ؟
نعم ، نعم ، كلمة مركبة ، ومعقدة • أين العمل الذى
يحلها فيه ، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التى
تستدير ببطء على لهب « بنسون » يلحق زجاجها ويرسب
أملاحها ومعادنها من تحت المياه البصافية الخادعة ؟

والترام يمشى فى عشوة الليل الزاحف ، مندفعاً
بزيقه وجلجلته ، بقوته الخاصة المتفجرة ، مغلقاً على
نفسه ، يشق طريقه على القضبان الحديدية القابضة ،
مشحوناً بطاقة غنية عمياء ، يخترق السواد المجهول
الحالك • والأنوار من نوافذه الجانبية تجرى معه
ترتفع وتنخفض وتستدير ، تلاحقه وتنتصب فجأة على
جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين ، فى اكمام
قريبة مهددة ، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتها مياه
الأمطار وسفحات الريح عبر آزمان سحيقة ، وتنبثق من
الرمال بحبوبها وكراتها وخطوطها ، حرشات صغيرة
خضراء خشنة تسطع فى النور بلون وحشى وتختفى
بأوراقها الكثة الداكنة • وتنهار سدود الرمل وتراجع
من على السكة لينفسح الليل عن براح مفتوح معتم ،
البحر يحضوره الغامض على مقربة ، أنفاسه الرطبة
بملوحاتها المبلولة تهب على صهاريج البترول : ضخمة ،

مستديرة تلمع بألق معدنى باهت البياض ، جائئة تحت
سما قاتمة ، أنداء هائلة راسخة على ضلوع الأرض ،
كاملة الاستدارة ، صلبة ، تختزن العصاراة المعدنية التى
تفتدى منها المدينة وتدر لبنتها الحريف الرقراق فى
الشرايين الظمأى الى الطاقة والقوة العمياء ، ينطلق منها
ألف حريق صغير مجنون محصور ، كل لجسابه وفى
طريقه المرسوم ، على مسارات التوفز والتوقف
والانطلاق ، كل فى حدوده ، ترقبه عيون ساطعة حمراء
وصفراء وخضراء ، تشق جسد الليل بألف جرح محسوب ،
متفجرة كلها بالصراخ فى ظلمة المدينة ، شرارات
تنوهج وتنطفئ ، تتناثر منبثقة من مسام الجسد .
ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم ، ملحية يمجها
اللسان . لماذا الترام يختط هذا الطريق ؟ أهذه شوتس
. . المكس . . العاصفة . . العامرية . . القبارى ؟
هذه بلدته ، هذه الاسكندرية ، وخطوطها مرسومة على
قلبه . . لكنه الآن لا يعرف أين هو منها . . ورائحة
المدايح الثقيلة الهاجمة تسطع ، ثاقبة تنفذ اليه من
شباك مفتوح ، جفاف صحراوى محمل بعبق نتن
لا يطاق . سحابة ليلية تهب به من نفاية افرازات
الحياة ، الجلود المشبوحة العفنة تنسلخ من حياة الى
حياة ، عبر محنة الموت والمجزرة ، وخبائة الزفر ، مزقا
دقيقة مأكرة الصنعة منمنمة ملساء تحيط بالاقدام
الصغيرة النظرة ، وتودع فيها الأسرار الصغيرة الأثيرة ،
ومفاتيح العلاقات بين أيادى الناس ، والرموز المخططة

الصامته بكل لغة ، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة
تفدو جلودا أخرى مصقولة ملفوفة حول حيوات أخرى
مكتومة تجرى فى مساراتها •

— أبدا •• ما وصلتش ولا حاجة •• كنت سرحان
شوية كده •• تعرفى امبارح مانمتش لغاية الساعة
أربعة الصبح •

— يا خبر •• ليه ؟ خير ؟ كنت عيان واللا ايه ؟
ثم استدركت ، ولملت عينها بنورها الأصفّر :
— واللا العيار تقل عليك ؟ كنت فى سهرة لازم ••
فى لوم واتهام •

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة فى داخله ، وحلف
لها ، وصدق هو نفسه حلفانه ، ومر القسم والتصديق
مرور غاشية تعكر ثقل صفو ما ، صفو رازح الركود
لكنه مستقر • وجدت فى غرفتى كتابا قديما بلا غلاف ،
من مهملات البيت ، فى ركن الدولاب • كله حكايات
غريبة ، تلك التى يسمونها خرافات • حروب قديمة
من أيام الرومان أو اليونان أو مثل هؤلاء الناس ، من
أيام الاسكندر والفرس ، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن
•• عن عاشق ينظر الى الماء ويتحول الى زهرة نرجس ،
عن بنت تصبح شجرة •• والله ما كنت نائما ، لكنى لم
أكن مستيقظا أيضا • لم أكن أحلم ، ولكن لم أكن
أستطيع حراكا ، مهيض العزم ، متجمدا ، حالة عجيبه ،

لا ، لا ، لم أكن قد شربت شيئاً والله العظيم • صحيح •
 كانت هناك واحدة ، كالقولة في الحواديت التي كنا
 نسمعها ونحن أطفال • تنظر الى الناس ، والحيوانات ،
 فتصبح كلها ، في نظراتها ، حجراً • والأشجار ، وكل
 شيء ، أحجاراً جامدة • كل ما تنظر اليه • لا يستطيع
 حراكاً • والعرق يتفصد مني ، حتى النفس ما عدت
 أحس به ، ولكنني كنت مفتوح العينين ، وكان في الغرفة
 نور ، لم أكن أحلم ، لكنني لم أكن أتحرك ، ولا أريد أن
 أتحرك • • ياه • • لم يكن الليل يريد أن ينجاب • •
 أبداً - يا شيخ ، لا بد أنك كنت تحلم - أبداً ، أنا متأكد
 • • هل كنت أحلم ؟ أبداً • • هل هناك ما يحول بيني
 وبين الحلم ؟ الشيء الوحيد الذي لا رقابة لأحد عليه ،
 لا أحد يتحكم فيه ، لا شأن لأحد به • كنت أنت يا نعمات
 ليلتها أمامي ، راکعة على الأرض ، ينسدل عليك
 قميص نوم أبيض ناعم النسيج ، قميص سابغ ينزل من
 على كتفك بانفساح ، الى الأرض ، تخفى وراءه جسدك
 كله ، حتى ذراعيك يحيط بهما كم لصيق ، حتى
 الرسفين ، وكان ثم صوت تدفق للمياه ، تهضب وتتسلسل
 في خرير مستمر تحت الأرض ، كأنه في غرفة سفلية ،
 في الدور الأرضي من البيت • حنفية مفتوحة منصبة
 في مجرى ما ، في الغرفة ، كما ينصب ماء المطر على
 جوانب الشارع ، ولكن الشارع هنا يجري في الدور
 الأرضي من البيت ، بين الحيطان ، في الليل ، لا يهتم
 به أحد • ورفعت الى وجهك يا نعمات ، في العتمة ،

مشرقاً ، أبيض • وقبلتك • شفتك العلوية السريقة
انفتحت تحت فمي ، والشفة التحتية المكتنزة ، داكنة
الحمرة ، في ضمة ريانة ناعمة اللمس ، ويدى حول
عنقك الباتمة ، المدورة تحت الشعر الهش الأثيث ،
زهرة رائعة منبثقة من الأرض • وأنا أمص الرحيق ،
بشفة مكهربة ، كل الرقة وكل المحبة • كل العزاء ،
وتيقظت أرتجف •• وفي قلبي رقعة فسيحة من رضا
شامل ، مرتاح ، ما ان استيقظت حتى أخذ يتحيف من
أطرافها قلق متوفز ، لاسع الأسنان • كأننى اجتريحت
اثماً ما ، لا أفهمه • نعم ، هذا هو الحلم • لكن قلبي
دباه وداراه وتحوط عليه ، كأنه لقينا يطمع فيها كل
قلب • ماذا بقى منه الآن ؟ خيط واه رفيع يتموج فى
قلب مياه ضحلة ، لا لون فيها ولا كثافة • لكنى بالأمس ،
لا ، لم أكن أحلم والله ، أبداً ، كنت مفتوح العينين ، فى
الصباح وجدت نور الغرفة مضام •• الله •• أما كلام
قارغ صحيح • أنا عارف ما هذه الكتب ؟ بلا غلاف ،
ولا عنوان حتى • ولكنها مؤثرة ، تدير الرأس ، كتب
الناس القدامى هذه • لا بد انه كان من كتب أبى •
الله يرحمه •• أمنا الغولة ، نظرتها تحول الناس
الى حجر •• !

وضحك • كانت عيناه جامدتين ، لا ضحك فيهما •

— ايه •• وصلت لحد فين ؟

التفت اليها • وصلنا • وضحك ، بسهولة فيها

توتر خفيف ، وهي تبتسم ، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج ، عن رضاب لامع - لا حد لعدوبته ، يعرف سكره - ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة . وكانت عيناه تضحكاً . كانت يبيوت الأزاريطه العاليه قد تراجعت ، ومبنى هيئة الصحة العالميه بأعمدته الرومانيه الجديده ، وسلاله العريضة ، ومئذنة جامع القائد ابراهيم العاليه ، وأشجار النخيل الهندى فى الحديقه . واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة فى تفريعه خط المحطة ، فألقى اندفاعه به بازاء جسمها ، لكى يستقر عليه لحظه ، فى ثمان خميس صلب . ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة فى الضوء والحركة وزحمة أول الليل . واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن ينصب بسهولة من مصابيح مستديرة هادئة ، كاللبن الدسم . على الخشب الأكاجو الأصفر الداكن ، على الجلد البنى الطيع الغنى القتامة . وفى احتكاك الأقدام البطيء فى طرقة الخروج الضيقة ، والناس يدفعونه من الخلف . مد يده يسند ظهرها أمامه ، وأصابعه تستقر لحظه على صفحة الكتف العريضة ، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة بالليونة الناعمة ، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك . ويتفجر مجد المساء الأحمر فى انفساخ السماء على الميناء الشرقيه ، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصباً ، السحب المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها ،

والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة • وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه ، وهما يسرعان ، ويلمان أطراف المطف والجاكّة حول الرقبة والوجه ، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر ، وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف « التوينز » الناعم ، عاريا تحت الكم القصير للبلوفر ، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار ، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكري المدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه •

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق • والمصعد يئز في طاقته الكهربائية المشدودة •

كانت هي التي فتحت له الباب ، بعد ان وقفت زنزانة المصعد الحديدي ، في طرقة بيتها الرثة ، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه في بقع مبيضة حائلة ، والباب الهش قشرة مهتزة واهنة القوى ، وهي تنحنى بعصبية الترحيب ، بابتسامة صادقة ، بأهلا وسهلا ، لتحنى أحد اخوتها الصفار من الباب ، وقد جروا جميعا ليلبوا دقة الجرس - الذي كان قد بحث عنه ، بحيرة ، بعض الوقت - يتزاحمون بين ساقبيها وحواليها • وكان حر أغسطس رطباً ، وهواء الطرقة مكتوما • ونفثات من روائح أكل بعد الظهر ونوم

القيلولة مازالت معلقة بالحيطان والأسيواب ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة .. يوه . اوعى كده يانبيل . استنى يا تونى . مش عيب يا بابا عيب ، وهى بمنحنية تزيج الولد العفريت الذى يجرى بين الرجلين ، وتستقيم فوراً ، فيعود انهمار صدرها الصغير بثمرتيه الناعميتين العاريتين - وقد سطع لمينيه ، لحظة ، طربا ، يهتز ، فى انحنائها - ويتخذ مكانه الآن فى مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواسعة الجابونيز . وعظام وجهها الأبيض تتحدد فى عتمة الباب والنور من ورائها . ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البننى المسترسل الهش الملمس ، القاتم الآن فى انعكاس النور من خلفها ، خيوط نباتية كثة دمة ، وتضع يدها لحظة فى يده ، وتضمها على أصابعه ، رخوة ، دقيقة ، عصفور صغير ملموم ناعم الريش ، وتشده بأهون حركة وأرقها الى داخل الفسحة ، وتسبقه ، وصيحات الأولاد يتقهقرون متواثبين الى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون : ماما أبيه شوقى الى بيشتغل مع أبله نعمات - ماما عندنا ضيوف .. ماما .. ماما .. يوه طيب يا ولاد أهلا وسهلا . وحركة القيام من على مراتب الكنبه المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب فى سهولة وطيب قلب .

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد . فى غرفة الصالون الضيقة ، شهودها قطع الأثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرسومة بالنخيل

والجمال من ليبيا ، وشمس الظهر الحامية من ورام
الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون ، وهو يتحدث
الى الأم عن حكاية الشهادة التي تريد استخراجها من
البلدية ، ويأخذ منها أوراقا مطبقة مصفرة رقيقة
الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحس من طول بقائها
فى الظرف القديم بلا شك ، تحت الملابس فى الدرج
العلوى من دولاب أو بوريه أو تحت مرتبة السرير ،
والخيرة فيما اختاره الله يا ضناى ، نعمات والله يتشكر
فيك خالص ياسى شوقى ، وتمعزك زى أخوها ، قالت لى
عنك كتير ودايما بتجيب سيرتك بالخير يا بنى ، ربنا
يرضى عليكم ياخويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد
الحرام ، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال ،
والثرثرة العجوز تسترسل وتطيب القلب ، وهو
يستريح اليها ، راضيا ، ولكنه لا يخطيء فيها مع ذلك
نغمة لعلها مقصودة ، لهجة الأم التي ترحب بعريس
محتمل ، وتستكشف الطريق ، وتمهد الجو لعدل البنت
التي فى سن الزواج ، فى ثقة وتمكن ومن غير اصطناع
ودون اقتحام .

ونعمات تأتى له بالشأى على الصينية الزجاجية ،
ويسطع له مرة أخرى وجودها فى مظهرها الجديد
الحميم ، فى غير ملابس العمل وأناقته المصنوعة ،
بأناقة جديدة مستريحة ، وذراعاها العاريتان تبدوان
منعشتين ، نسمة من هواء البحر الطرى فى الحر ، وقد
تكسر البطن ، واسترخى النهدان بجانبى البلوزة

الواسعة ، والبنطلون البيتي الصيفي من قماش خفيف
كاروهات أبيض وأسود - صغيرة ، هندسية - يستدير
في نعومة بالبطن والردفين ، في التصاق خميم ،
ويتحملها في رفق ، يقيها من الانهمار في الضبوع ،
وينتهي تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين
المسحوبتين رخامهما أبيض بارد * وهي ترفع ساقها
لكي تجلس على الفتويي أمامه ، الى جنب ، فترتفع
القدمان العاريتان من على الأرض ، وتدفعهما الى تحت
جسمها ، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق
المكشوفة المستديرة *

وتستريح في جلستها ، وترفع فنجان الشاي لكي
ترشف وتستطعم ، في تخفف من كل عبء ، حسية الراحة
على الفتويي ومذاق السائل الأحمر الشفاف المتعش
بسخونته ، يعدل المزاج ، ويرطب الجسم * والأحمر
على شفثيها ، من لون الشريط المريض المعقود على
الشعر ، والخط الأسود الحالك السواد الذي يحيط
بالعينين ، ويحددهما ، ويكسبهما سعة ذبئية نائمة
الضراوة ، في صفرتهما الباهتة وهج الشاي المشع ،
وهي تبتسم في ارتياح ، ولكن فيها شيء مهدد كامن ،
كأنما فرغت من أمر الفريسة ، وهي تتمطي في أدغال
الأثاث الرث القديم *

دخلت عليه فجأة وهو في المعمل ، بغد انصراف
الدكتور ، وحاول أن يفرش «الاهرام» على طبق

الفنجان ، لكنها كانت أسرع من حركته ، ورات نشار دخان السيجارة الفرط المفتت في الطبق ، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجانبه . ولم تتكلم . كان المعمل معتما في آخر العصر ، ولم يكن قد أضاء النور وفي عزمه أن ينتهي من السيجارة قبل أن ينصرف الى ليله الطويل المثلث بالعمل . كان وجهها رخاميا في العتمة ، أكثر شحوبا مما رآه في أى وقت . وقالت له بصوت مضطرب انها نازلة ، فلم يسرع الى النزول معها كعادته . وأكمل ما هو بسبيله ، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية . هل ثقل عليك العيار ؟ أبدا والله العظيم . لم أكن أحلم .

وهذا ليس كله بشيء ، هو يشرب لكى يساعده ذلك على السهر ، والعمل . هذا كل شيء .

كانت عيناها تتقدان بهذا الوهج الأصفر المحرق ، نار مركزة ، وصوتها مرتفع ثاقب لا يعى الا نفسه ، فى مناقشات ومشاحنات لا تنتهى الا لتبدا من جديد ، مناقشات فى العمل ، هذه المرة . هؤلاء النسوان لا يفرغ لهن ضجيج ، ورقة التحليل ، الست التخينة جاءت اليوم وفتحت عقيرتها ، لماذا لم ينته شغلها ؟ وحسن المرض حرامى ، لماذا تتركه يسلم الشهادات للمرضى بنفسه . ليس هذا عمله ، ووقاحته معك .

ليس هذا من شأنى ولكن لماذا تسكت على لسانه السليط ؟ انت المسؤول ، لا شأن له بالشهادات . انت

المسؤول ، أليس كذلك ؟ وهل تعرف ماذا يقول عنك ،
من ورائك ؟ ولكن هذا يحز في نفسي ؟ وأنا مالى . .
والشفتان الرقيقتان ترتجفان ، شفرتان جادتان لشيء
قاطع ، وهو يحاول أن يناقشها ، أن يرد عليها ، بحجب
هادئة ، وقد جف قلبه ، ونفسه تفور . هل العمل حقا
هو مبعث هذه الهجمات التى تكاد تفقد فيها كل تحكم
فى نفسها ؟ أم السبب امراته ، وحكايتها ، أم اكتشافها
فى العمل ، فى آخر العصر ، أم هو حبوط ما فى
دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء ، ويشققها ،
عن هذا النفث من لهب وحميم أن ؟ وهو ينهض ، ويدور
حول جثة الآلة الكاتبة السوداء ، والأوراق المتناثرة .
ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها
السميك العتيق ، ويسقط على كتفها . ثم يأخذ بذراعها
يدعوها أن تجلس .

ندت عنه لحظة ، ثم استرخت فى المقعد ، كأنها
قد استنفدت معين غضبتها ، والكتف المدورة الناعمة
تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة فى أشعة الشمس ،
حلوة الاستدارة ، وينحسر طرف « الجيب » من أعلى
الساق ، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى ، واعدة ،
متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفى . بم يرد
عليها ؟ وما جدوى الكلام ؟ أى شيء يحقق له ما يتوق
إليه من اندماج كامل ، ووفاء كلى بالوعود التى ينبض
بها الجسد ؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد . ما من سبيل
إلى الوفاء بالوعد . وعليه أن يروض نفسه ، ويسومها

الصد ، وينأى • عليه أن يجاهد هذا الحريق الالاعج
الذى يطوح به ، يدفعه للارتقاء على أبواب هذا الهيكل
الباذخ الناعم الرخام • وينحنى ، وهو يرد عليها •
وشقتها السفلية الداكنة الحمراء مازالت تریجف ، اهون
رجفة ، مكتنزة بخصب لن يعرف طعمه أبدا • حتى بو
عصفت الأنفاس الحارة ، ودفعت ظمأه الى النمره السیه
بالرحیق ، فهناك فى داخله منطقة جذب كامله لا ارتواء
فيها • ذراعاه فيهما توتر كهربى مشدود ، لو انه صم
الى صدره هذا الهيكل المنيف •

هناك فيه منعة لا تطال • وبصره يقع فجأة على
ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصیسی ، سیه من
البطن العارى تحت القماش انكشف للضوء فى
انحنائها للامام ، وهى تضع ساقا على ساق ، عجین
طرى متماسك القوام تحت كنزین صغیرین یحملان
وعودا أخرى مخبوءة فى ضمة النسیج • الم يعرف هو ،
عبر محنته الطويلة ، ختل الوعود ؟ زم نفسه ، فى عناد
لا يطاق ، عن ان يحيطها بذراعیه ، فهو يعرف ، يعرف
انه لن یجد شیئا • ومهما كانت النار موقدة فى المحراب ،
فان قدس الأقداس خاو على عروشه • وهو يعرف انه
سیبقى دائما ، دائما ، خارج الأبواب ، یشرب ، ویعمل
طول النهار ، ویعمى من الشرب والشغل ، هذا كل
شیء •

زئین الجرس المفاجئ العنید ، فتقوم ترد على

التليفون • نداءات معدنية مصممة لا بد من الرد عليها ،
التليفون والباب والساعة والتزام ، تحرش لا ينقطع
ووخذ الابر المشرعة فى اللحم الخى •

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة
صافية مخففة الزرقة بالماء ، كسف السحاب البيضاء فى
الشرق تخفى استدارة الشمس ، وينسكب منها ضسوء
رقرق طلق صحو ، والتزام يصعد فجأة ، فى رحلته
الطويلة ، على كتف من الأرض الرملية ، يتسنى متن
الطريق ، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد
حديدية عالية • وتتكشف زرقة السماء من بين الأسلاك ،
وهما فى التزام ، فوق ، على القضبان ، فوق قمة العالم ،
تحت السحاب الأبيض ، النوافذ مفتوحة يهب منها النور
المبلول القادم من البحر ، وهناك فجأة ، تحت ، تنفسح
أمام عينيه الصحراء • ومدينة الملح فى وسط المراء •
امتدادات من مياه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة
بلورية من الملح اللامع • وتقوم فى وسطها أبراج عالية
مخروطية ، عليها صلبان فضية تلمع وتنعكس وهج
النور الصباحى ، وقباب مستديرة مغبرة البياض ،
ومآذن سامقة نحيلة ، وتبدو له سطوح البيوت ، والمناثر ،
متلاصقة مربعة ، ومستطيلة ، مبنية بالطوب والحجر •
وقد ساخت البلدة كلها فى وسط مستنقعات الملح ،
وليس فى المدينة من حركة ، وسط المياه الساجية
المكسوة بالملح ، سهول فسيحة حوالها ، والماء الملح
يترقق على طين رملى رخراخ ، أمواجه ضحلة صافية

على قاع الرمل ، يلعب تحتها الضوء ، فى قلب الصحراء
الشاسعة المسطحة حتى الأفق ، ويهبط الترام فجأة ،
تفور به الأرض ، وترتفع حواليه السدود الرملية
القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشتاء ، فيها
تجويقات رملية صلبة ، والترام يشق النور الخفيف
الساكت ، فى رؤيا من حميا رائحة ، وأوراق التين
الشوكى الصلبة المشعثة ونباتات الصبار الجافة الداكنة ،
منتصبة شائكة ، تضرب فيها عصارة كثيفة نزرة الماء .

وهما وحدهما ، فى الترام الخاوى ، يقف على
المحطات الخشبية ، والأرصفة خالية ، ويقوم . والسائق
مندفع ، بين فجوات الصمت وضجيج القرقعة ، ويده
تتلمس يدها ، وتعثر عليها ، فوق استدارة الجسم وبين
حناياه الطرية ، وتتداخل الأصابع فى تماسك حميم
وثيق ، فى بحث ملهوف . عظامها الرقيقة تصطدم
بأصابعه ، تحت جلدها الدمث ، الغض ، وتدفن نفسها
بين ثنيات يده ، متلمسة أيضا ، تنقب عن شيء ما ، عن
تواصل ما ، عن اندماج محموم ، متعجلة ، تجوس ،
وترتاد ، وتتفحص ، فى الحاح ، ولجج ، ولهفة .
والدماء تضرب فى رجولته . الأبراج والقباب تنبض
تحت الشمس ، فى مدينة ساحلية مهجوزة فى الصحراء ،
تحت طبقات الملح . والخطوط الحديدية تتشابك
وتتداخل وتنفرج ، والمحطات تتوالى ، ثم تتراجع بين
الرمال .

والترام يقف ، ها هي ذى المحطة ، وينتزع يده ،
 ونفسه ، منها ، فجأة . ويقف ، لا يقول شيئاً ، وإنما
 يجب أن يجرى ، وينزل يلحق محطته ، قبل أن يقوم
 الترام ، ويندفع ، فى غشاوة محمومة منيرة . وما تكاد
 قدمه تلمس أرض الرصيف ، وما يكاد ناظر المحطة ،
 الذى يقف وحده ، ينفخ فى صفارته ، وما أن يستدير
 ليلوح لها بإشارة التحية والوداع ، وينفث الترام أولى
 آهاته ، متأهبا للحركة ، ويصلصل الجرس ، حتى يدفعه
 فجأة شخص ما ، من ورائه ، دون أن يراه ، الى داخل
 الترام ، بينما الترام يتحرك . وهو يقبض مرغما ،
 متشبثا ، على حاجز السلم بخشبه الالامع القديم ، فى
 هذه الحمى الساطعة ، فى صمت المحطة الصحراوية
 الخاوية ، وهو على سلم الترام وقد بدأت القضبان
 الحديدية تتراجع تحته ، وجسد القاطرة يتزلزل فى
 أول حركة . واذا بحاجز السلم الخشبي ينخلع مرة
 واحدة فى يده ، ويرتفع فى الهواء . وهو يتطوح .
 والترام قد تجمعت طاقته واندفع الى الأمام . وهو قد
 تزايل ، لا يستند الآن على شيء ، وقدماء تتزعزعان من
 على السلم ، والرصيف قد تراجع ، ويده قد ارتفعت
 قبضتها بالحاجز المخلوع ، وهو يتطرح ، ويتهاوى ، على
 وشك التردى الى الوراء ، فى سرعة انطلاق الترام .
 ولكن الكمسارى يمد يده فجأة ، ويجذبه ، ينتره الى
 الداخل ، مرة واحدة ، وهو يثب ، لا يحس شيئا ، واذا
 هو فى الداخل ، فى أمان مؤقت لحق لهفته ، وآواه

وراء زجاج الواجهة ، على رقعة من أرض الترام المعدنية
المنطلقة فى طريقها •

يا أخى مش تحاسب ، حصل خير على كل حال ،
الحمد لله ، جت سليمة • كأنه هو المذنب ، كان هذا
الحاجز الخشبي المخلوع لم يكن هناك ، ولا ذاك الذى
دفع به الى سلم الترام ، من ظهره • كأنما كان سيقع ،
وتقع الحادثة ، بخطئه وذنبه • وكانت قد ظلت جالسة ،
بلا حراك ، تشخص اليه ببصرها ، ثابتة النظرة ، فى
عينها ماء متموج مغروق ، لا ينسكب ، صامت ، على
قاع أصفر ذهبى باهت ، به نقاط رقيقة سوداء •

والكمسارى يتجه اليهما ، فى قصد ، يطلب شيئا ،
مهددا ، لا يتكلم ، لكن لن يتراجع • ومن ورائه ، من
الدور العلوى للترام ، نزل الاعراب ، متجهين اليهما ،
يطلبون شيئا ، لن يتراجعوا • لمة من البدو ، هم من
سكان العامرية ، بلا شك ، أو هذه البلدة الصحراوية ،
من النازلين فى المصحة • على أكتافهم ورؤوسهم بطانيات
صفراء ناصلة ، بها مربعات زرقاء باهتة ، يخفون بها
جوانب وجوههم ، لا تبدو الا عيونهم السوداء الضيقة ،
جامدة ، عميقة لا يسبر لها غور ، تحت أهدابها
الشقراء ، على الجلد الاسود المدبوغ ، وثنيات الغضون
فى وجوههم تبدو خطوطا رقيقة معرجة بيضاء فى
الجلود القشفة التى صوحتها شمس لا ترحم ، وصهدا
حر قاس لا ينى يعود يوما بعد يوم • وحول الفم تقرحات

بيضاء ، كأوراق معرقة باهتة ، ممزقة من وسطها مرقا مشعثة ، يغطونها ، بأطراف البطانيات ، بأيديهم المعروقة السوداء التى تشعب البياض وتخرج ، فى بيوادها ، بأزهار وحشية الشكل ، شائكة كالصبار . وهم يجتمعون حواليه وراء الكمسارى ، صامتين ، عيونهم تبرى ولا ترى متحرقة ، مصوبة نحوه ، مشدودة اليه ، تسطيع فى غورها ، لا تطرح . ماذا ترى فيه ؟ كل منها شمس صغيرة متقدة ، يتألبون عليه ، بأعوادهم الضيقة الخاسفة ، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات ، وقد حفوا به ، كأنما يتوقعون منه الخيانة ، وينتظرونه ، وقد اعتورته ، برغمة ، سحابة همومهم ، وغشيته غاشيتهم . بؤرتهم هو ، هدفهم ، ونواة احتشادهم . ويمد اليه الكمسارى أصبعه ، فى تحذير ، هؤلاء قومك ، هؤلاء ناسك ، أطلب أيا منهم تجده . تحت أمرك . انت منهم ، وهم لك . أنت ، نعم ، انت .

وقد ارتمض من دعر مفاجيء ، نفضه من شلله ، فهب يفلت من خطر محيق .

ويندفع ، دون أن يدرى ، يجرى ، يثب ، ويسقط من الترام المنطلق بها ، بالكمسارى وبالسائق ، وبهم ، بهم جميعا . هنا محطته ، لا طريق له بعد الآن . وتتطوح الأرض تحته ، ترتفع اليه ، صلبة ، ثم تنخفض به . وهو يجرى . تتلاحق ساقاه الى الامام ، يكاد ينكفىء على وجهه ، ويستقيم ، لا صوت يند عنه ، يلوح

بيديه • والترام قد انطلق بعيدا عنه ، أصم ، مغلقا
على ما فيه •

ويقف ، يشد قامته ، وقدماه تثبتان على الأرض
الرمليّة ، يصدر عنها حفيف جاف في السكون الذي
يعود فيرين على كل شيء • وليس في قلبه حس ما ،
الا بأنه وحده ، وقد وصل الى آخر السكة • وحده ، في
رمل الصحراء ، ينسكب عليه ضوء رقرق من وراء
السحاب الأبيض الخفيف • والهواء جاف ، طاهر ،
والصمت مطبق ، تام ، في فراغ الصحراء ، أمام
الخطوط الحديدية الممتدة ، حتى النهاية •

القاهرة

٧ مايو ١٩٦٧

جرح مفتوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب ، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه ، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة ، تحترق من الحر . وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال ، كالأعمدة ، أكتافهم حجرية ، تحت ثيابهم الفضفاضة ، كأنهم ليسوا هناك ، فى ظلام الشارع الضيق ، فى البعد الغائر العميق . يرك النور من الفوانيس ، أمتة ، تطفوا عليها سحببات الهاموش الليلي وهى تموج ، من غير صوت .

القبة العريضة صدر ممتلئ بشهيق محبوس ، لا ينفرج أبدا عن زفير ، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة فى نقش مطموس المعنى . والسقف الواطئ المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب القديم ، ويصعد منه البرج المربع القصير ، تأتى السماء الصلبة من ورائه ، وتخترقه ، وتثبت فيه ، مثقوبة بأبر مشعة لا أعداد لها ، بين الجوانب الراسخة السميقة . جرم الجرس الضخم المعلق ، اخرس ملجما ، يثقل البناء

البجائم ، تحت ، فى وسط ربوة الأرض المنحدرة ،
مدفونة فيها درجات السلم الرخامى الناعمة المدورة
الحواف يتخايل له وضعها الباهت ، من عالم سفلى •

وهو يستدير اليها جالسة فى النور الأزرق الناصع
الذى يتقد ، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور •
ساكنة ، محنية رأسها ، شعرها جدائل كتان سوداء
كثيفة ، يفور تحت الطرحة التى علق بسوادها التراب •
ساقاها ، حتى القدمين ، تحت الجسلاوية الضسافية ،
ممتدتان الى جانبها ، هيكل ساقط بين حقول السكليم
الصوفى الخشن النبات •

— اجيه •• اجيه •

يربطها هذا الدم الواحد الرازح الوطأة ، وهذه
العشرة فدادين من الأرض فى حضن صخور الجبل •

كانت خطواتها ، طول عمره ، حذو خطواته •
قرينته ، يحسها معه ولو كانت غائبة ، يحس وقع
نظراتها عليه ، صابرة مطيعة ، الأخت التى لا عوض
عنها أبدا ، معه فى كل مكان •

— اسم الله عليك ، وعلى أختك •

كان صوت أمه يجيئه ، ملهوفاً ، يقيله من عثرته ،
عندما يقع على العتبة الرخامية المسوحة •

— انت الآن أبى ، وأمى ، وأخى معا •• قم الآن

كل لقمة .. قم ، قنাম وتمستريح سحابة الليل ، حتى
يصبح الصباح .

كان مكسورا ، خاويا في آخر الليل . فقد كل ماء
الحياة . عيناه حجوريتان . نضبت قنهما كل عصارة .
في عيشيه الحفرة الطينية التي أسقط اليها النمش .
ومازال صوت التراب ، وهو يسقط على الخشب ، يفص
له حلقه - ارتياح آخر الاعمدة في حضن الارض -
وكان يغالب اجهاش الشهيق المكتوم ..

- نام ياخوى .. يا خوى ! يا بوى ! يا بوى ! .. !

صرخة اليتيم الكاوية التي لا يندمل جرحها أبدا .
لقد انقضى آخر يوم من مجدها .

ماذا حدث الآن ؟ ماذا يحدث ؟ كيف يطيق مرآها ؟
كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذي
تخفى نصفه الطرحة السوداء ، ولا تبرحان ؟ ولا يستطيع
أن يحول بصره عن هذه القامة الناضجة العذراء تنسدل
الجلابية على ثمرتيها الراسختين ، لهما نداء أمر
التبرة ، فيها ثبات لدن ، بقوته الخاصة ، وتحديه ،
بمطالبتة الخاصة التي لا يمكن أن تهدر .

يدها الأخرى ، بأصابع طويلة عظيمة ، تمسك
بقماش الطرحة الرقيق على صفحة وجهها . عينان
تنظران اليه ، موجتين هادئتين ، من وراء كل الزمن .

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما
الرخص ، على البلاط المسوح فى الطرقة ، وفى يدها
الشأى ، موجته الصغيرة وراء الضفاف الشفافة تهتز
على قاعدة سميكة مدورة من الزجاج .

وهو يرد سماء الليل بيده ، خارج النافذة ، كل
الوحوش الآن فى الخارج ، محبوسة . ويهتز مصباح
النور العارى لصوت الاصطفاق المكتوم . هما الآن فى
سجن جديد مضىء ، والعمارة العالية كلها تحتها برج
هش من الطوب والأسمنت والبلاط ، تصطرع فى قفصه
العلوى حمامتان .

وهو يضع كوب الشأى على زجاج الكومودينو
المصقول الذى يبرق فى النور ، ويشدها اليه ، سلسلة ،
منقادة ، لا تكاد تعترض :

— لا يا سيدى .. لا يا سيدى ..

ويدفعها بجانبه على السرير ، وما زالت الملاعة
البيضاء المفروشة تشع بوهج النهار .

كانت مع أبيه من قبل . خدمتهم كلهم . وعى
لنفسه وهو يراها ، كما هى ، لم تتغير ، الأيام ترتفع
وتنحسر وهى نفسها أجيّة . هذا الوجه البنى المحروق ،
بميينيه المخطوطتين بالكحل الطويل ، سوادهما عميق ،
صموت ، ومتسائل ، صورة مدفونة بين صفحات الكتاب
القديم الذى كان يقلب رموزه فى طفولته ، والأنف

الاقنى الصخرى ، ناعما وحساسا مع ذلك • قالوا انها كانت عند جده ، وكانت أيضا هناك عند آباء جده ، من أيام جده السابغ القديم ، ذلك الذى جاء ، لا يدرى أحد من أين ، ليستقر هنا ، ويشترى الأرض ، رملية مالحة هنا ، وسوداء غمقة هناك • جففها ، وغطاها بجسده وعرقه ، حتى اخضرت بين يديه ، وامتدت الى النيل • لم يبق منها الآن الا « العشرة قدن » فى حوض الجبل •

وكان يستيقظ فى الليل فزعا يصرخ من حلم ، فىرى وجهها ، هو نفسه ، وديعا ساجيا ، فى نور مصباح الجاز تحمله بيدها ، وتمسح العرق عن جبهته باليد الأخرى ، نور يأتية فى الظلمة ، باهرا كالنجدة ، فينام ودفع صدرها يطرد الأشباح عنه حتى مجيء النهار • وفى ليل طفولته كان يعرف ان دم الفراخ المذبوحة ، والببط ، والحمام الصريع قد يتنجس ويرش رخام عتبة الباب ، فلن تعود تجرى وتنق وتلقط الحب فى الحوش ، تحت الزير ، كان يعرف ان القطرة التى يجدها فى الصبح مقلوبة على ظهرها ، منتفخة ، فى تراب الشارع ، لن تعود لتموء ، وتسحره ، قبل أن ينام • وكان يخاف أن يموت أبوه ، ويخاف أن يأتوا ليرفعوا إخوته من فوق التراب ، لا يتحركون ، فلا يعودون ليلعبوا معه أبدا • ثم ينسى ذلك كله سريعا • وكان يعرف أيضا ان أجية لن تموت ، لا تموت • ولا ينسى • كان فى دفينه حسه مكان لا نسيان فيه ، فيه أمن معتم صاف وراحة نهائية ،

كأنه يلعب وحده تحت السرير في مكان لا يصل اليه
غريب .

ساقاها عمودان من حجر أسمر دافئ ، منحوتتان .
وفي الحجر الوثير شرايين دقيقة زرقاء ، نبضها
يرتعش ، لا يكاد ، تحت يديه . في أصابعه حنان
ملهوف ، وشفتان تتمرغان في اللدونة المتماسكة ،
ربوات ترتفع الى غيطان الجسد الممتدة حتى الأفق .
ويده تدور بالخصر الصغير الهضيم ، تحت القميص
الساتان الأخضر اليانع ، تحبس فيكل الاضلاع القوية
تحت النعومة . الخضرة في نسج القماش المرفوع على
صدرها ، ينبثق منها النوار والأزهار ، في خطوط
متقاربة ، ومستأنسة ، وشامخة ، وعصية . عيناه
غارقتان في أمواج الزرع ، حتى مدى البصر . والهواء
يحمل اليه رائحة الماء الذي يجري تحت هذه الأرض ،
رائحة تراب مروي ، حريفة ومنعشة .

وفي كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية .
ملساء ، على الجنبين ، يحتضنهما . بلى يحتضن جانبي
العالم كله . العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزا
شاسعا مستحيلا ، برباته ووهداة الطرية . بين
ذراعيه صحراوات مقفرة خاوية ، لينة ، ومشدودة ،
ومتموجة ، فوق صخور العظام ، ملاستها تحت أصابعه ،
ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمس رغبة

لا تنطفئ ، وليال ساطعة لا نهاية لها ، من الانتظار
والوحشة .

• وهو يشق القميص اللامع القساثن ، بعنف •

ويده مرتفع الى الجرح الميثيق المتشعب الخطوط .
• عنيكوت مدفوع بخيوطه المتفرعة السوداء ، مكوية •
• عروق حجرية غائرة في اللدونة المدورة السعراء •

كانت الصرخات الثاقبة تنوح في خوام السماء ،
متتالية طويلة ، تنادى وتستنجد ، والهواء قد خف
فجأة ، وتخلخل • والأصدا تتردد ، وتتضخم ، بين
الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم •
الليل كله يتدفق وينزف في هذه الصرخات ، حاشدا
بندير غامض يدق على أبواب القلب • ثم جاء الصمت ،
وسقط كاملا ، مسدودا • حتى لقد كان يسمع له
صوتا ، في مجرى دمائه ، في موج مسارها الذي
لا يتوقف •

وكانوا قد خرجوا من البيت ، وراءه ، على خطوتين
منه ، أولاد أعمامه ، تاوفيلس ، وجيسر ، ومينا ،
خطواتهم تتباعد وتتقارب ، وعلى أكتافهم البنادق في
العتمة ، جامدين لا يهتزون في مسيرتهم ، بإزادة لم يعد
بوسع شيء ان يوقفها • ليس في وجوههم الا الجفاف •

كان الخبر قد جاءهم في أول الليل : أسرع ،
أجية سقطت مصابة في القيط • وصرخت النساء ، ثم

صمتن • قالوا انها بخير ، ولكن حسه أنذره انهم
يدارون عنه ، قالوا جريئة فقط وان لم تستطع العودة
للبيت ، ولكن حسه أنذره ان الجراح لم تعد من تلك
التي يستدعى لها الطبيب ، قالوا جاءتها النداهة
وطلبت ماء ، أو الذئاب ، لاندري ، أو لعلهم عربان
الجبل ، ووثبت عليها ، في عودتها الى الخصر ، في آخر
الغيط وتزور أهلها ، وتسال عنهم ، عيب ياخوى أن تمر
السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية ، هؤلاء ناسنا
وأقرباؤنا ، والحريم ليس بوسعها أن تأتي إلينا هنا
في البلد ، حرام ، وأنا أشتاق الى مجلسهم والسؤال
عنهم ، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم ، والأكل
جاهز ، والعيش طرى ، خبزنا البارحة ، ولن أغيب عن
البيت الا سحابة اليوم ، وليس للمرأة أن تغيب عن
زوجها ، صحيح ، ولكنها سحابة يوم وأعود • ولم أكن
راضيا ، كنت أحس النذير ، لكنى سكت ، سكت ، فى
جبين ، كان سكوتى عن خوف أيضا ، وتعلل بأكاذيب
هشة ، أعرف فى صميمى أنها أكاذيب هشة ، مهما بدت
مقنعة : ليس هناك من بأس ، هذه العصابات قد انقطعت
عن الاغارة على العمار منذ زمن بعيد ، وانصلح حالها ،
والذئاب ؟ أين الذئاب ؟ لم يعد فى الجبل ذئاب تخيف
أحدا ، وهم هناك قد قطعوا دابرها ، ويستطيون القضاء
عليها بضربة فأس واحدة ، أو ضربة من شمروخ ،
وها هى ذى الآن قد سقطت ، هل ماتت ؟ ولم تجد نجدة ؟
لم أكن هناك ، كانت وحدها •

— أجية •• أجية ••

لم يرد عليه أحد •

كانت أجسام الفوانيس واقفة ، خضراء ضدئة
ممشوقة فى الليل ، تقبل اليهم وهم يسرون فى الشوارع
المتعرجة ، تلقى برك النور على بيوت الخشب البغدادى ،
على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة ، مصمتة
ومشقة ، على ورق التبن وآثار خطوط الأصابع
البارزة فى الجدران الطينية ، على آكوام التراب وریش
الطيور ونفاياتها الجافة ، على الأوراق القديمة الساقطة
على الأرض لا تتحرك ، كأنما لا وزن لها •

كانوا قد تركوا حدود البلد ، وكانوا يشقون
الفيضان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التى يهب
عليها هوام الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب ،
وكان صوت المياه يأتهم من الظلام ، تنسرب وتخرخر
فى القنوات الضيقة الموحلة ، شحيحة ، صوت أنفاس
صعبة فى صدر عظمى شيخ ، ولكنه عنيد •

كيف يمكن أن أتركها ؟ فى دمي هى ، فى عظامى ،
مجدولة بنسيج لحمى ، التراب الذى فى يديها عالق
بجدران قلبى • وجهى لا يعرف له مأوى إلا على
فخذيه ، وتحت ثدييه • هناك ، هناك فقط ، على
أرض لحمها الدثة بيتى ، فى تلك الخصوبة الكثيفة
الزهمة • هناك تسقط عنى مخاوفى وعذاباتى ، وأجد
راحتى وأمنى • وأجد عذابات أخرى فى راحتى ،

ومخاوف أخرى فى أمنى • هذا كل مالى من راحة
وأمان •

لنسج القميص وهو ينشق فى السكوت المطبق
صوت كنفث الفحيح المفاجىء •

وهو يدير وجهها إليه ، وقد سقطت الطرحة من
على السرير ، وتموجت وهى تتطاير الى الأرض ببطء
مفروشة تغطى جانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على
الكليم •

وندى من العرق الخفيف ، يتفصد قطرات دقيقة ،
فى زرقة النور البيضاء ، يكشف عن منابت شعرها
الفنى الاثيث على الجبهة المدورة السمرء • وينهمر
شعرها ، فى حرите الجديدة ، أمواجاً وفيرة سوداء ،
على ملاءة السرير •

وهو يرفع وجهها النقى من على السرير ، ويديره
إليه ببطء ، وهى لا تقاومه ، طيعة ، عيناه مفتوحتان •
ويده ترتفع الى الخد الممزق من تحت العينين الى عظمة
الذقن ، بجلده المشدود ، مجمداً ، ضامراً ، متقبضاً •
شوهته ندوب كالشعيرات • متعرجة • جافة • تسطع
بينها ، فجأة ، مساحات صغيرة نضرة ، رائقة بريئة من
كل شائبة ، فى سمرتها الحية الفضة المنعشة ، وسط
آثار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التى التأت على
شبكات من نغل دقيق صلب ومتجمد •
الجدران ساطعة خضراء ملساء •

وهو يغطي خدها بـ راحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قاسية ، يحس قلبه يتقبض من حنان لا يطاق ، والأنفاس تنحبس فى حلقه ، وعيناه ، على الرغم منه تتفارقان •

عندما خرجوا من أجزر الفيضان ، كان الرجال ساكنين ، جالسين خارج الخصر ، أمام المساحة الضيقة التى تتمش القدم فيها بالحصى والشقاف ، ويختلط فيها الرمل بالتراب ، حتى تأتى الأججار الناتئة الهشة والصخور التى ترتفع الى صدر الجبل • ومن خلال فتحة الباب ، كانت الفتائل المشتعلة تدخن فى كيزان المصابيح القديمة السوداء بجدرانها الصدئة الدهنية ، وتهتز فى الجاز العكر الثقيل ، وتلقى أضواء وظلالا متراوحة لها ذيول وتعرجات على الساحة الرملية •

وكانت لمة النساء متحلقة فى الداخل حول بذرة موضوعة فى وسطها • ويملا بسبهن سيوداء ، والطرح ساقطة على الأكتاف العظمية • وكانت تأتية من بعيد أصوات لفظ الكلام النحون ، وثرثرة المواساة والتهوين •

كانت حمرة النور تتوهج له من بعيد ، داخل الخصر ، من مصباح الجاز الزجاجى الوحيد المشرق وسط فتائل الصفيح • بؤرة تتضرج وسط الجلاء تحت الجبل • آخر عيدان الذرة فى القيط ، معلولة الشعر ، تهتز فى حرارة جنازة مظلمة ، من غير صراخ • ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرجة صاعدة ، متربصة ،

متهدة ، نحو سماء قاتمة الزرقة ، قاحلة حادة
الجوانب .

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب
واقفين عند مقدم الموكب الصغير ، وانفجرت حلقة
النساء وابتمدن يلتصقن بالحيطان الطينية فى داخل
الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم
الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقذور
المدورة السوداء . طيور ليلية داكنة تهرب الى الجدران ،
وأجنحتها ترفرف وتصطفق ، أصواتها تهبط الى صمت
قلق ، وعيونها لامعة ، بعد آخر دفقات الزرقة والسقيق .

كانت عيناها واسعتين ، سوداوين ، فى النور
المحمر ، بهما نظرة ثابتة حارة . وكانت ساقطة ، فى
هدوء كأنه الراحة ، على بطانية فى لون البن المحروق ،
مطوية فوق الحصيرة الرثة . وكانت تخفى نصف وجهها
بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذى ينتهى بشراريب
ملبئة دسمة بخيوط الحرير ، تسقط على صدرها .
انحنى ، وأزاح الشال . كان الدم المغسول بمياه عكرة
قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من
التراب ، على جانب الوجه الصافى . كان أنفها الاشم
متوترا ، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض فى النور ،
مزمومتين على سر لن تبوحا به أبدا ، وفستانها الاسود
ممزق ، منهوش ، وقد تضللت مزق النسيج بالدم المتخثر
اليابس ، تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها
اللامع ولمحات ندوب جراح غلوية مشروخة فى اللحم

المكدوم الأسمر الغض ، على الصدر الناهد ، وقد نفرت
على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة ، مشقوقة في وسطها
بخطوط الحمرة الداكنة •

كانوا قد تربصوا خلف النخس ، وسقطوا عليها ،
على هذا الحصر • كانوا ثلاثة ، أو أكثر • وكان النخل ،
في رأس الغيط ، تحت الجبل ، هو الشاهد الوحيد •
كان المغرب أحمر ، يزرق وينطفئ ، ويتهدم وراء
الصخور القليلة الارتفاع •

كانت الأذرع قد أحاطت بها ، كثيرة ، وثيقة
صلبة ، كالكلابات ، وسقطت تحت هجمة السيقان •
كانوا قد اسندوا بنادقهم الى الحائط • وتمزقت تحت
اندفاع صخري وحار • هل صرخت ؟ أم كانت غائبة .
نعم ، وراضية •

كانت قد انقضت مرة واحدة ، متزاحمة بأجسامها
القضيصة القوية • لم تكن تنبج ، بل كان لأنفاسها كيرير
عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونها
شعلات صلبة • كانت تدور حولها ، وتفتersh لحمها •
كانت المخالب تخمش الأرض الطينية ، تحفرها ، في
احتكاك له قشعريرة • وكانت تحس انسحاب المخالب ،
حادة باردة ، على خدها وصدرها ، صاعدة هابطة ،
تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة • كانت الأيدي
المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد في خطوط متقاطعة ،
والانياب الطويلة الماجية المبلولة تنزل مرة واحدة ،

وتغوص ، والشدقان مسحوبان الى الوراء ، واللهاث
الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التي لا تطاق .

كان فى الخص ، فى حرارة الليل ، نفث كأنه من
رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة . رائحة
أته من لياالى طفولته ، عندما كان يستيقظ فجأة دون
سبب ، وينادى : أمه ، أمه . . . وهى تعجن فى صمت
الليل ، وصوت العجين الطرى يصطفق . وكانت تقوم
تغطى القصعة بالملاءات النظيفة ، والبطاطين ، ليتخمر
حتى الصباح . وتأتى اليه ، تسقيه ، وتلف حوله
الفطاء ، وهو يرى فى نور حلم مهتز وجهها الأسمر
الساكن الصبور .

عينها شاخصتان اليه ، ورأسها على البطانية ،
وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصىرة
الصفراء ، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور ،
متورما مرضوسا ، وشرابين حمراء مشرجة قد نزت
على صفحة الجلد المقسولة .

المذراء وقد سقطت . أين كان ابنها ؟

— قدر ومكتوب ، ما باليد حيلة .

— كيف ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟

— من يصدق ؟

— كانت وحدها يا أختى . ياعينى .

— أمر الله ومشيتته .

- ما استطاعت أن تفعل شيئا .
- ياختى .. ياخذناى .
- وماذا يجدى الكلام الآن ؟ مبيئة الله .
- كيف جاءت هنا وحدها ؟
- اختنا وحبيبتنا ، كنا معها ، قلبنا معها .
- كيف حدث اذن ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟
- أجيه .. أجيه .. !

وهو يحتضنها بقوة ، بين ذراعيه ، فى شبق الحنان ، ويدفع وجهها الى صدره ، يخفى جرحها . شفتاها تحت ذراعه ، تتلمسان صدره بقبيلات صغيرة سريعة ، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفر فى أذنيه .

كانت المرأة قد نادت عليها ، فى أول الليل ، وكان صوتها شابا ، ومبحوحا . واقتربت من الخصر . كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوى ، اسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها ، وفى يدها عود حطب . وكانت ورائها ثلاث عنزات تنغو ، وترفع رأسها الى الجبل . كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل ، فيترك خطأ عريضا . وكان الجبل رماديا ، وأضواء الذرة صامتة ، متزاحمة ومتلاصقة ، شاخصة فى نقش مشعث حجرى ، عليه رواسب من التراب .

ومدت المرأة اليها يدها ، فى حركة دعاء واسترحام .

— عطشانة ياىتى .

وعندما اقتربت منها ، كان وجهها ناحلا ، تحت
العصاية العريضة الداكنة الحمرة التي تدور بجبهتها ،
وكانت شفتاها ملحييتين موشومتين بالأخضر ، والحلقة
الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها . وكانت وسوسة الحلي
الصفيح على صدرها ، في الخلاء ، مكتومة تحت الطرحة
الثقيلة .

— عطشانة ياستى . اسقيني لله .

بصوت لان له قلبها فجأة .

كيف نسيت؟ كيف تركتها تقترب؟ كانت الامارات
كلها هناك ، وكم من مرة سمعت الحكايات ، في كل
القيمان والبيوت ؟

كان في عينيها تضرع القطعة ، وفي مشيتها المتمهلة
على الرمل انسياب ناعم ، وكان كل شيء ساكنا ، لكنها
تحس مع ذلك نبض الترقب حولها ، ولهفة الترصّد
ولا تملك أن تغير شيئا .

عادت الى الداخل ، ورفعت جالوص الطين الذي
ينطى البلاص ، وغمست الكوز في مرآة الماء المصقولة .
كان في بقبة الماء وهو يلين ، ويتكسر ويملاً الكوز ،
ما يريح الصدر ، ويجعلها كأنها تبتسم ، مسحورة .
وأخرجت الكوز مائلا من الفوهة المدورة ، وهو يشر
بالماء البارد ، واستدارت لتسقى المرأة .

احتضنتها النداهة ، فجأة ، وأحاطت بها ، وسقط
الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة ، وينسكب على

الحصير ، لا يهتم به أحد ، ووجدت نفسها في قبضة
عناق خانق ، رائحة الجلباب الأسود المقرب تكتم نفسها ،
وهيكل المرأة الجاف يضغط على جسمها ، والجلى الصفيح
مفروزة في صدرها ، تؤلها . واندلعت النار في
وجهها . كانت المرأة تقبلها بشفتين من الشوك ، قبلات
حادة لاسعة . ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت
تقبلها في خشخشة الثياب السوداء الثقيلة التي التفت
بها من كل جانب ، قبلات كاوية متلاحقة . وقد انبثقت
نافورة من الألم تتفجر على ثديها ، وتترك آثارا رفيعة
ثاقبة تنشعب كالبرق . وفتحت فمها تصرخ ، فاغرة . هل
صدر عنها صوت ؟ هل حدث شيء ؟ كان كل شيء حولها
مقفرا ، موحشا ، وليس هناك غيرها . وقد سقطت على
الحصير . كانت تسمع الرجال يتنادون ويجرون من
بعيد . قادمين اليها بنجدة فات أوأانها ، وكانت النساء
تصرخ . لم تكن هناك اعرابية ، ولا معيز ، لا شيء ،
الا عارها ، جراح كأغصان النباتات الشوكية التي تنبعث
بين أحراش الحلفاء ، وعلى حواف الترع المشققة من
الجفاف . حزمة كاوية بها عقد والتواءات ، مدببة
الأطراف ، متقاطعة ومتداخلة على صدرها وخدها .

وهو يغطيها بجسمه ، كأنه يحميها من عريها ،
وعازها . يتلقى عنها ، بعظامه وبعضلاته الموجعة ،
ثقل النور ، في سجن الجدران اللامعة ، ويدراً عنها
غيبوبة . ترك لها صدره تفض عليه عيناها
الجريحتين ، وتلصق به خدها المحفور ، وصدرها

المنتهك • يدخل معها فى منطقة حميمة خاصة بهما معا ،
مغارة تنقطر فيها أشعة خاطفة ، فى قلب صخر
من النور الراح •

قد يستى المستباحة • كيف امتهنت ؟ كيف امتهنا ؟
كان يقظا فى ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب
النافذة ، وهى تنام الى جانبه ، وجهها فيه سلام ، وفمها
مفتوح فى حلم منعزل لا صلة له به •

وكانت أطرافه كلها متوترة فى قلق متوفز
كهربي ، ترتعش له الأعصاب ، دون أن يملك أن يردّها •
تفجر المويل يملأ سماء البلدة عليه ، فى صراخ ملحاح
ممتلئ الأحشاء بالخوف ، تتردد له أصداء ثقيلة ، برك
من الصوت ، معدنية ، تنداح من جوف جرس ضخّم ،
وتتسع على صفحة الليل ، تحمل تهديدا يحيط بكل
شئ • وصمتت البلدة كلها ، حبست أنفاسها ، وسمع
وشوشة النخيل فى حوش الكنيسة ، تحت •

وتقلبت أجية وتمتت فى نومها :

— من مات ؟

وفى عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض
صرصارا داكن اللون ، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية ،
وهو يسير ، فى عى ، الى وجهة مقصودة •
وانطلقت صفارة القطار من المحطة ، متصلة ،
متطاولة ، تجلجل فى نفس واحد لا ينتهى ، تبشر

بالخلاص ، والعجلات تفرقع منطلقة الى بعيد ، فوق
الجسر ، حتى تقلب الرعد الحديدى الليلي وانتهى الى
مطر خافت يتقاطر فى فراغ الحقول .

وعاد الصمت موحشا ، يملأ السماء ، تنفتح له فى
النفس فجوة شاسعة بلا قرار . وهو وحده ، بازاء
الصمت ، يحس صهد الحرارة فى وجهه ، جسمه ينتفض
بالعرق ، وأطرافه ترتجف .

يا حبى ، كيف امتهنوك ؟ كيف امتهنت ؟ كيف
سقطت ؟

أبكى ، كالطفل .

كيف أبرأ ؟ وتبرئين ؟ بكاء السقوط يا حبى ،
والامتهان . كيف تجف الدموع ؟ .

وفى الغد لم يكن يجرؤ على أن ينظر الى عيون
الرجال . سقطت ، لكنها طاهرة . مغتصبة ، بل داعرة .
شهيدة ، وضحية .

— أجية . . أجية . .

كانت عيون الرجال متباعدة ، لا تبوح بشيء .
كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها ، وكان صوته
هادئاً ، محبوساً . كان الرجال قد انطوى كل الى وحدة
داخلية . عزفت النفوس عن الالتقاء .

منذ متى جاء هذا البرد ؟ وتفككت الظلمة ؟ كان
الرجال قد ناموا على الحصر ، وبنادقهم الى جوارهم على

الأرض • التفوا بالجلابيب والشيلان والبطاطين • فى
الخص الطينى الضيق كثافة النوم ، وأصوات الأنفاس
الثقيلة المكتومة ، لم يطلقها النوم من الحبس •
وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجرى من جديد •
من يصدق انه نام أيضا ، واستراح •

وعندما خرج ، وتركهم نائمين ، كأنما يودعهم فى
حنان لا رى له ، كانت حقول الذرة فى النور الأول
للنهار ، مبلولة من الندى ، ونواصيها مثقلة محنية
بالماء ، لا تكاد تهتز فى رعشة البرد التى سرعان
ما انجابت • كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه
ويجف من دكنة الطل المخلصة • تطايرت شبورة الفجر
سريعا ، لم تبق منها الا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى
وتذوب حول عيدان الذرة •

كان ذهنه خاويا ، صافيا ، وقدماء تسيران به ،
وحدهما ، بين الحصى والحجر ، الى طريق الجبل •
والسما مشدودة ، سخنة ، والشمس قاسية فى
عينيه •

وتحت أظافره حبثات رمل دقيق مغروز • وهو
يضع وجهه على خدها ، يحس شقوقه الجافة ، ونضرتة ،
وقسوته •

انت تقتليننى •

القاهرة

٣١ مارس ١٩٦٩

البرج القديم

وهو ينحني بوجهه على المدفأة ، يرمى نارها ، هبات
الدخان الخفيفة ترتفع اليه ، تصدم عينيه فجأة ،
وجفناه يضيقان ، ولا يعود أمامه الا شق تلعب السنة
النيران الصغيرة فيه ، تتولد ، وتختفى - ويحس الدموع
تتقطر فى ركنى عينيه - ثم يطير الهوام بالدخان بعيدا
عنه ، الى ناحية الباب ، ولا تبقى الا رائحة الجاز الحريف
على قطع الخشب التى غطاها تراب الاحتراق الرقيق
وانهارت أطرافها وتفجعت فى اليباف طولية هشّة
مازالت متماسكة بين قطع الفحم المهلولة ، رطيبة
السواد ، معدنية ، اللغمان ، مرصوسة ، ثمينة على
التراب الضارب الى البياض ، الشديد النعومة ، تتطاير
منه على وجهه هبوات تتشتت للفور ، كلما نفخ فى
النار .

كان جسم المدفأة الفخار ، المدور ، المحبب بين
يديه ، ما يزال باردا .

مسح بظهر يده الهباء الناعم الماسخ الطعم الذى
غلق بشفتيه ، ودعك يديه احدهما بالأخرى ، وهو

يرجف رجفات سريعة خاطفة ، ونظر الى الباب الخشبي القديم ، مفتوحا ، مائلا فى عتمة المساء على العتبة الداكنة ببقع مياه يتشربها التراب الشبعان • نشق بعمق ، يملأ صدره الذى أوشك أن ينضب • وعب من هواء أمشير اللاذع البارد ، وهو يأتيه فتضطرب نيران المدفأة ، وتموج أطراف شجرة الجميز العجوز على الباب ، وترتطم أفصانها المثقلة • نفثات الدخان الكثيف تتلاطم تحت فمه - نبيدا مرا ثقیل المذاق - وتكاد تخنق اندفاعات النار التى تنبثق مع ذلك فجأة ، هنا وهناك ، رشيقة وحررة ، من حيث لا يتوقع انفلاتها ، من تحت مخابىء الفحم والخشب •

أمشير هذه السنة جاء مبكرا ، بزعايبه وترايه وهوائه القارص • رفع رأسه الى سقف الحوش المفتوح على السماء • على الله تكون الجاموسة دفيانة فى الزريبة • أمر عليها لما تمسك النار ، وتحمى •

سماء الليل جدار من الرصاص مقلوب ، وفى فتحاته الزرقاء الباهتة بين سواد السحاب ، أجنحة الحدادى التى لم تأو بعد الى أكنانها ، امتدادات لآحراك بها ، مبسوطة الريش ، منخوتة ، فرعونية ، بدائية ، ساذجة ولكنها مازالت مهددة لها سطوة •

فى ركبتيه وسمانتي ساقيه خدر طفيف من جلسته ، مقعيا غير مستقر على الأرض ، أمام المدفأة ، وأنفاسه متداركة لكنه وحده مع متعة خفيفة رقيقة ، فى العتمة

الشاتية ، واضطراب ريح أول المساء حواليه . يحس
عظام صدره على رقتها غضة فتية تقبل التحدى ، وجسمه
الطويل المنحنى ، على ما يشقله من تعب طول النهار ،
لدنا مرنا تحت الجلابية الكستور الثقيلة ، والبرد يلسع
ما بين ساقيه فجأة ويهرب سريعا . وقدماه تحتكان
بالأرض يحس التراب الخفيف على جانبيهما ، وأصابه
تفوص فى جلد الشبشب العتيق التحيل .

من ورائه صرخة مفاجئة من الفراخ ، نقيقا ثاقبا
قصيرا مفزعا ، وفى لفتته للوراء صمتت الفراخ مرة
واحدة ، كما صرخت . لماذا اهتمجت هذه الفراخ
فجأة ؟ قلة عقل ؟ شيء دخل الزريبة من بين أيدينا ؟
لا يا شيخ . . والله ممكن ، يا داهية لا تكون العرسة
نطت من ع الحيط ، أو يمكن قار من الفيران الجبلى
الهربانة من الكوم الغربى ، تعملها وحياة العدرا .
تنسرق فى المساء من غير حسن ، وتمقر الكتاكت ،
لا يا شيخ قال الله ولا فالك . قلة عقل منك انت . .
كان زمان الكفر كله صحى من زياط الفراخ والوز ،
والجاموسة نمرت وحسها ملا البلد .

خيظ من النور الأصفر المحمر يطعن العتمة مهتزة
ولكن مثابرة متصلة ، من باب المنذرة الموارب ، ثم
يسقط على أرض المدخل ، ويرتفع على جدار الطوب
الاسود اليابس ، وينحرف ، ويتعرج ، وينشعب عن

زوايا حادة رخيصة متشابكة على عروق الخشب ،
المتفرعة بأعواد مشعثة عظمية الجفاف ، على أشلاء
أغصان شجرة الجميز المقطوعة للوقيد ، ميتة ، متساقطة
الورق تخشخش فى الهواء البارد ، وعلى أعمدة صغيرة
مهددة بالسقوط من أقراص الجيلة ، تتخايل كلها فى
شبه العتمة ، تحت سماء تسطع زرققتها الأخيرة ، خالية
الآن ، بين أكوام السحاب التى تتقلب وتنساب ، بسرعة
وصمت ، على السطوح الواطئة الناشئة الأطراف .

ثم لم يعد هنا شيء الا هذا الجهد الممتع المستغرق ،
شفتاه وفمه هما كل جسعه ، وهو ينفخ بانتظام وحذق ،
ويدارى بيديه على النار ، من هنا وهناك ، كأنها
عشيقتة ، فى خفاء ، يحميها من هبات ريح أمشير
المفاجئة ، وفحمتها تحمر ، ثم تبيض ، فى اتقاد
ساطع ، والخشب يقرقع فى احتراق بهيج ، ورائحة
الجاز قد اختفت أو كادت وحلت محلها رائحة سخونة
الرماد النظيف .

كان ينحدر الآن من ذروة اكتمال ما ، وتحقق فات
وأعقبه تهدل وراحة واسترخاء متعب فيه بقية من
توتر قليل ، والله لا راحة فى ليل أو نهار ، نشقى
طول النهار فى دقات الجمعية ، وايصالات الفلاحين
وحسابات التقاوى ورصيد السلفة على المحصول وعهدة
السولار والجرارات وأقساط الاصلاح وأوراق المهندس
الزراعى ، والميكانيكية ، وخصومات المجزء والكيماوى

والمبيدات ، وفوق هذا كله وقبل هذا كله طلبات
 البهوات من العيلة الكبيرة ، كله على دماغى أنا ، ومن
 ورائنا وأمامنا وحوالينا الباشكاتب ورئيس الجمعية •
 أنا عارف ، عارف أن الدفاتر والأوراق فيها لعب ،
 لكن أولاد الكلب لا يتركون الدفاتر على بعض معنى أبدأ ،
 دائماً معهم بحجة المراجعة وطلبات مصر ، وتقفل عليها
 الخزانة ، انت عليك التقييد والجمع والطرح والنقل
 من ايصالات وفواتير ولا شئ آخر • فاهم ؟ صحيح ،
 ليس هناك ورقة بامضائى ، هو أنا مجنون ؟ ليس هذا
 شغلى ولا مسئوليتى ، وأنا مالى ياعم • أه يانى • صرخة
 ثاقبة ، لا عاقلة ، قصيرة ، نهائية • أنة من بعيد ،
 خدشت طرف وعيه ، لحظة ، وانقطعت • حمامة فى
 البرج سقطت عليها حداة • فرخة انقضت عليها
 عرسة • طفلة ، فوق ، أمام قسوة العالم الجديد ،
 بقبضته الخشنة •

صرخت صرختها قبل أن تموت •

لم يسعفها شئ • لم ينجدها أحد • صرخت ،
 أطلقت فى ليل اللامبالاة آخر صيحة حياتها • حياتها •
 حرام ، حرام وحياة العذرا ، يقولون الباشكاتب قنى
 عشرين فدانا ، فى بحرى ، بعد البحر ، الجربوع
 الحرامى ، أبو اعدادية ، من أين جاءت الفدادين
 العشرون ؟ من السف والنهب ، من الضحك على دقن
 الاصلاح ، من دم الفلاحين ، ولاد الكلب ، هم أيضا

ساكتين ، مغفلين ، قال كتبوا عرايض قال ، ما الذى
يسكتهم ؟ قال « كذب مسوى أحسن من صدق منعكش »
حسابات سليمة ميه فى الميه ، وأنا أيضا حمار ،
لا أعرف أبدا أن أضع يدي على شيء ، عصاية الله يخرب
بيوتهم ، ويمكن غير صحيح ، بعض الظن اثم كما يقول
أخواننا ولكن أهناك دخان من غير نار ؟ حتى فى الليل
لا يرحمنا اللهم ، الله يسامحك يا أبا ارساني ، أما كان
يخرج من يدك أن توفر لنفسك ، من أيام العز المتلثل ،
ثلاثة أربعة فدن ، أو خمسة ، بدل القتراطين العمى
نطفح الكوته لما نتحصل على ايجارهم ، وتترك لى كبشة
أولاد وبنات أخوات أوكلهم وأعلمهم وأكسيهم ، ياخى
كفايه غلب المدارس ، وطلبات المدارس ، وستين ثلاثا
وأحمل هم شوار البنات .

وانت يا با ارساني : ربع الكونياك كل ليلتين
ثلاثة ، والمزة ، البيض أو ليمون ، والكبدة وجوز
الحمام ، وعلبة البلمونت صحيحة .

لم يسمع نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة مستمتعة
فى غير سخط ، بل بشيء من الاعجاب : هذه العظم
الناشفة القديمة ، لا تنهد أبدا . أوشك على الثمانين ،
بل لابد تجاوزها ، وما زال أيضا عفيا لا يدير رأسه
ربع الكونياك ولو شربه وحده ، وذهنه أصفى من قلم
حسابات بكله وكليله ، وحياة ستنا العدرا ، يغلب بلد
أبا ارساني ، وعينه كالصقر ، لا يفلت منها شيء .

هم واقفا فجأة ، وقد صمت ذهنه مرة واحدة •
لأنه نسي ، أو لعله لم يوجد أبدا - هم ولادة البنت ،
ومصاريفها ، وخوف التهديد والقلق الذي يجفف قلبه •
لأنه عاد بريئا ، حرا ، نقيًا • خمس سنوات الى
الوراء ، هل هي خمسة ؟ أبدا ، لن يفتسل أبدا من هذا
التوجس ، لن يخلص أبدا من هذه المواجهة مع زحمة
المخاوف وضرورة الهجوم معا • كأنه هناك وراء خمسين
سنين ، وهو مع ذلك هنا ، والآن ، قبل أن يتزوج
حنونة ، وتلد ، ثلاث مرات ، بنت كل مرة • وتموت
البنت • كل مرة ، قبل الأسبوع • كأن يدا مسحت من
ذهنه هذه السنوات كلها ، بل سنوات العمر كله ، كأنه
لم تكن هناك سنوات مرت أو تمر ، ثم انفكت حبسة
ذهنه ، وعادت الأصوات تملأه من جديد •

وهز رأسه في دهشة من نفسه نسيها للفور ، وهو
ينظر الى الحائط المسدود في الدور الثاني ، ويرتقى
درجات السلم الترابية المتحدرة الى الغرفة العلوية
الكبيرة أمام البسطة على سقف الزريبة ، مقفلة اتقاء
للبرد ، شباكها المطل على الزقاق محكم السد بالخرق
المحشورة بين الحائط وضلفة الخشب المتأرجحة أبدا ،
المسنودة بالعلب الصفيح والكراكيب والهدوم والحقاق ،
وزجاجة الزيت الراكد المدهنة ، اللزجة الفوهة ،
برواسبه البيضاء الثقيلة في قعر الزجاجاة تلمؤها ،
حنونة على تفلها ولا تفرغها أبدا ، كأنها تخشى ، لو
نظفتها ، نضوب البركة • وجنبها زجاجات الخل والسبرتو

معا ، كيف تميز بينها ؟ كل منها فوهتها سوداء محشوة
بقطعة ملفوفة مدكوكة من ورق الجرنال ، الداكن
الاحمرار . وقطعة المرأة المكسورة والفلاية الخشب
وانصاف الأمشاط البلاستيك والقمع الصفيح الصدى .
وقلبه يتل من جديد من الشوق للدفع الذى طالما عرفه
فى هذه الغرفة ، وتفرق أرضه أمواج التوق لجنون
الانطلاق الحسى العارم ، وأمواج الخوف أيضا من
مضض القلق والانتظار والانطفاء ، وطعم التراب
الكاسد الثقيل ، والعجز أمام جفاف الحياة الصغيرة التى
تدبل وتركد وتلتوى هامدة فى الاقمطة واللفائف ، كل
مرة ، يعود اليها يحملها ، على ذراعيه ، الى تحت ، الى
النعش الخشبى الصغير الاسود بصلبانه البضاء .
يا رب . . يا رب . . ارحمها هذه المرة يا رب . .
ارحمنا ، كيريا لايسون . . يا رب ارحم . . ارحمنا . .
ارحمنا . . ستة شمع نذر على يا ستنا العذرا وأدى
ندرك ياست . . يا أم النور . .
— احم . . يا ساتر . . ياساتر .

ودقات عصا ثقيلة على تراب الأرض ، من الخارج .
تقترب مع الصوت الأجش المجروح .

وفى نفس الوقت هرولة نرجس الصغيرة على
السلام ، والباب يفتح ونور مصباح الجاز « الشيخ
على » ، يشب ، ويتناول ، ينخسف فجأة يكاد ينطفئ
فى يدها ، وأخته تهتف به هتفات خافتة ملهوفة ،

قدمها الحافيتان ، السوداءوان بعظامهما الرقيقة
الصغيرة ، على التراب *

— أبا فانوس .. المعلم جورجى .. المعلم
جورجى جاى *

وفى نظرة حنو تعرفها البنت وتألّفها ، تبتسم له
عينها الضيقتان بمكر ، وفى صوته قشرة مكسورة من
قسوة خادعة :

— طب يا بت يا مقصوفة الرقبة ، مالك اتسرعت
ليه ؟ ادخلى قولى لبنت خالتك حنونة تحضر العشا *
وشوفى أبا ارسانى ينزل المندرة يا الله يابت ياللا
اعملى لك همه ، وروحى اندهى البت المديوية خضرة
شوفيهما متاوية فى أنى داهية ، همى يابت جاكى ديب *

مقصوفة الرقبة فرحانة لأنها تعرف ان الليلة التى
يجىء فيها المعلم جورجى سينالها نصيب من الزفر ،
وهو يأتى اليها فى جيبه بكرملة من عند الخواجا
شنوده البقال ، يدسها فى يدها من وراء ظهرنا *
ومازالت البنت تتوثب بالافراح واللهفات الطفلية ،
فى الابتدائى مازالت ، أما أخواتها الثلاث فقد انتهت
طفولتهن ، وهن لا يختلفن عن الفلاحين فى شيء *
وطافت بذهنه آمال قديمة مألوفة أن يصبحن كقريباتهن
فى دمنهور ، أو اسكندرية ، ومازال يراهن فى مستقبل
غامض : فى بيت بالماء والنور ، زوجات موظفين ،
رشيقات نظيفات اخوتهن تخرجوا من الجامعة دكاترة
ومهندسين ومدرسين ، متى يارب أرتاح من همومهم

جميعا وأفرغ لحالى ونفسى ، لا أأول هم المدارس والأزواج ، والأولاد الذين يخرجون كل يوم على وش الصبح يسرون للمدرسة فى الخطاطبة على أقدامهم ، توفيراً للاشتراك ، ويعودون كل عصر ، عشرة كيلو متر كل يوم صباح مساء ، ومع ذلك ربنا يحرسهم ، ينجحون بمجاميع •

كانت خضرة تنحنى ، بجسمها الفارع القوى اللدن ، ثم ترتفع قامتها الطويلة من تحت الجلابية السوداء السابغة المتربة ، مشقوقة على الصدر ، ويبدو من الشق طرف جلابيتها التحتانية ، المفسولة الباهتة الزرقة ، ولحم صدرها الأسمر المتماسك • وعلى رأسها خرقة القماش المبطلطة ، على الطرحة ، ترتفع فوقها الصينية النحاس الواسعة ، وعليها ما فضل من العشا • تهتز الأطباق والأكواب وتنزل قليلا على الصينية ولكنها لا ترتطم بعضها ببعض ، بل تثبت فى توازن • والظهر النسائي الشامخ ، منسرح ، متين الاسار ، من تحت الجلابية التى تحف أطرافها بالتراب من على القدمين الكبيرتين الحافيتين • وانكشف خشب الطبلية الصغيرة مسودا رقيقا ، هزيلا ، عظم قديم فى تربة ، بعد أن أزيح عنها الغطاء المعدني الباذخ الصفرة بنحاسه العريق وبقع السمن اللامعة •

ورجعت خضرة بالصايون أبو ريحة ، والطشت عليه الابريق • كانت يداه تنعمان برغوة الصابونة النافذة العطرة ، وخيط الماء الأسمر يتسرب رقيقا باردا ،

جاءت به البنت ، بلا شك من الانجر الكبير تحت الزير ،
 يثلج حموة فى يديه ودمائه ، ليست من هبو الكونياك
 ولا من حمو ذكر البط ، بل هى وهج داخلى يشعل
 أحشاءه ، ويحس معه ذكوره متطلبة ، أمرة ، متوترة ،
 والبنت تنحنى ، وصدرها الوثير يتدحرج تحت الجلابية
 السوداء ، ويندفع نهداها من فوق طرف القميص
 الناصل ، ويملآن الشق الطولى الرفيع ، فى وفرة ،
 وضغط ، ويتخذان مرفأ خاصا واستدارة خاصة ، اذ
 يتضامان معا ، تحت النور المحمر ، وهى تنحنى تصب
 له الماء ، وفى رائحتها يختلط نفح جسدها الحميم بطعم
 الحليب الطازج ، ورائحة الجاموسة ودخان البجلة
 الدافئة الجديدة ، والصابون ، والزفر السمين المطبوخ ،
 فى بخاره المبق ، كلها نعومة ، ومثانة ، راسخة أيضا ،
 كل شئ فيها مدور ، محكم اللدونة ، ليس فيها ما يدشط
 الحس أو يهبش بالمغلب والمنقار الحاد ، ولا قسوة
 العيين المفتوحتين الصاحيتين أبدا .

وعندما ذهبت للمرة الأخيرة ، وعيناه تتبعان
 موسيقى الردفين بايقاعهما الغنى ، البطيء ، الملىء ،
 عايز حاجة يا معلم ؟ طب تصبحوا على خير ، بجى ،
 فتكوا بعافية . * أحس جسمه يتمطى ، بالرغم منه ،
 مهدودا وملآن ، مازال فيه توتر قليل يخبو ، يحث على
 الراحة لا على التوفز بالقلق والهجوم ، وفى رأسه دوار
 الكونياك الخفيف ، ومازال فى زجاجة النص بقية ،
 ولكن عينيه صافيتان ، مجلوتان ، كل شئ يبدو له محدد

قاطعا ، فى ضوء أسطح قليلا من المعتاد ، أوضح قليلا من المعتاد ، كأنه ينظر من خلال عدسة مقربة جديدة : وجه المعلم جورجى المكتنز المترهل ، بجلده المزرق ، المنقور بأثار جذرى قديم ، وعينيه الجاحظتين المبقرتين ، من غير نظارة ، نيتيتين ، تدور المقلتان من غير رؤية ، وتحس انها تتبعانك مع ذلك ترصدان كل حركة فى داخل نفسك أيضا ، خفت الآلفة القديمة بشاعة شكلها ، لا يضع عليهما نظارة سوداء ، ولا يريد ، لكنهما الليلة تبدوان له كأنهما جديدتان عليه ، فى اقتحامهما وفجورهما ، فى بذاعة سافرة ، وغريب منه أن يقبلها - هذه البذاعة - ويسلم بها ، مع ذلك ، هو والقرية كلها - لا صلة لذلك بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين فيها - وحافظ لا تخونه الذاكرة - أبدا للخولاجى كله ولألف ترنيمة بالقبطية والعربية معا - وانه هناك حيث كل شىء كبير وصغير ، فى الولادة والتنصير والقربان وجبانيوت الخطوبة واكليل الزفاف وقداش الجناز ، فى رش الماء المقدس فى البيت بعد الموت اراحة للروح من عناء الانفصال ، وعند تفريق الملابس ، وشرب المغات ، فى تسجيل عقود الايجارات والبيوعات ، وبعد جمع القطن ، وفى كيل القمح ، عند ذبح الوزه وعشار الجاموسة ، فى لعب الطاولة وعشرة البصرة ، وعندما يأتى حكيم المركز أو ضابط النقطة ، على السواء - لا - أبدا - هذه البذاعة العارية فى عيني الرجل الصخريتين المسدودتين وفى تلمظ شففيه الجسيمتين الدهنيتين ، فى تعليقاته الصريحة المفتوحة

ونكاته القبيحة المباشرة اللفظ ، انما هى شئ آخر
يحس الجميع براحة اليه وبمتعة خاصة فيه ، كأنها
محرمة قليلا ولكنها مسموح بها لأنها أساسية ، متعة
تفاجئ يدريك وصدرك أحيانا وانت تمسك عجل
الجاموس اللباني الغض لثديحه فى العيد ، أو عندما
تقبض على استدارة امرأتك المليئة المقببة كالعجين الدفىء
الخمران ، تحت غطاءه الثقيل ، وتغوص فى الليل .

كانت النظرة يحسها تثبته فى مكانه ، وكأنما
تثقبه - منذ بضع لحظات بالفعل ، أحس العينين
الضيقتين المعجوزين ، يقظتين رغم العشاء الثقيل
والكونياك كأنهما متربصتان ، وجارحتان أيضا ، من
تحت غطاء الحاجبين بشعرهما الأشيب المنتفش الحاد
الشوك ، وهو يخرج السيجارة من علبة البلمونت ،
بيديه السمراوين الشفافتين ، عظام الأصابع الطويلة
لا تهتز ، ويمدها له ، بصمت وشئ من تقطيب خفيف
يمقد الحاجبين الكثين البيضوين ، كأنه يسمح له
باقتراف الذنب أمامه ، أى ذنب ، كل ذنب ، الآن فقط ،
فما كان الولد ، مهما كبر ، ليجرؤ أن يشعل سيجارة أو
حتى يستأذن فيها ، ولو بعد العشاء والشرب ، الا أن
يأذن له أبا ارسانى هذا الاذن غير المباشر ، ولو اضطره
الأمر ، وحبك الكيف ، تعلل بأية حجة ، وخرج يشرب
الدخان بعيدا عن نظرة أبيه العادة .

انمقد الدخان حول مصباح الغاز النيكل الكبير

الدائرى المبطن ، بزجاجته الرائقة الطويلة المستدقة
العنق فى طول ، بعد انفلاتها من قبة الضوء المنتفخة
حول شعلتها الساطعة • واستند الرجال الثلاثة الى
المخدرات ، وهناك من فوق ، جلبة البنات والأولاد ، ومعهم
خضرة بلا شك ، فى معركة العشاء البهيجة ، وأخرج
الشيخ أقراص الدومينو من تحت الشلطة ، تحت كوعه •
كانت المدفأة الفخار فى الركن تتوقد بصمت ووهج ،
تبعث حرارة تشبغ عظام الرجال فى المندرة المنيرة
المنعزلة المقفلة على نفسها ، بطن مركب مضيئة فى موج
النيل الليلي •

— والله الدفا عفا ياولاد •

— أى والله •• هايبياك ••

— دوش •• سمعت يا سيدى جاموسة الناظر عشرت
النهارده ••

— ايوه يا معلم •• وبيقولوا بنته كمان •• اتنين
وستة ••

— ثلاثة واحد •• ياراجل اتقى الله •• وبغدهالك
يجى ••

— تاخذ كاس يا أبأ ارسانى •• كاس كمان يامعلم
جورجى ••

لقى عليه ابوه نظرة أخرى خاطفة ، ضربة مخلب

من صقر ، جاف ، وهز رأسه بالايجاب - وعلى الطرف الآخر من الشلثة ، كانت الأصابع الغليظة المدربة ، معوجة قليلا فى اكتظاظها باللحم ، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة ، بين الابهام والسبابة - وتضعها فى مكانها ، والدهن الذى ينز بالدهن والذكاء معا يلتقط الرقم ، ويحسبه ، ثم تسحب الأصابع القرص التالى ، فى نفس اللحظة تقريبا ، وتسندة فى الصف الممتد على الشلثة المفروشة فوق الحصىرة - والصف يستطيل بسرعة ، ويعوج ، ويصنع زوايا حادة ، والحصىرة تكبر وتصل الى نهايتها - وهو يرقب اللعبة وينشق دخانه يملأ به صدره المزدهم - كأس أخرى ، وتغيم عيناه قليلا ، وهذا الوضع القاطع فى الأشياء لم يعد يؤذيها - كأس أخرى ، ويتمهل الايقاع الوثير الممتلئ حتى لا تكاد تهتز موسيقى النهدين والردين الناعمة ، ويتمثر ذهنه قليلا ، ويفوص ، من غير دفع خارجى ، فى ردغة مبلولة طيبة - يتوقف جريه فى توتر السهم المنطلق المشدود ، دون أن يصيب هدفا - آبا ارسانى يضع خاتمة حساب اللعبة ، وقد كسبها مرة أخرى ، فمهما كانت براعة المعلم جورجى وذكاء أصابعه ودبرته المشهود بها فى كل بيت ، دائما يكسبه آبا ارسانى ، ودائما يعايشه فى آخر اللعبة هو انت عايز تكسب كل حاجة يا جورجى ياخويا ، فيضحك العريف ضحكته الجشاء ، الغليظة ، ويلتقط بين شفثيه السوداويث اللامعتين ولسانه حركة تلمظ كأنما هناك لذادة متعات أخرى ومكاسب لا علاقة لها

بالحساب ، وما يزال يضحك ويهتز كرشه الدور في
القفطان الحرير من تحت البالطو الصوف ، اللهم اجعله
خير يا ولاد ، الله يجازيك يا آبا ارساني ، خير ياسيدي ،
وانت ياسى فانوس الى واخذ عقلك * * خد ياسيدي ،
جبت لك ميت مصلية من عند آبونا ، بركة من الكنيسة ،
خد ياخوى كل شيء بارادته ، عقبال ما ناكل ملبس
الفرخ * * في حياتك ان شاء الله يا معلم جورجى ،
خد ياخوى * * وفي عزك وعز آبا ارساني يا واد ،
ايه ، حناخذ زماننا وزمان غيرنا يا جورجى بس زينا
يخليهم ، ويخلي لها أبوها ، والله زمان يا ولاد ، فى
صحتكم * * تتربى فى عزك ياسى فانوس ، الى جاب لك
يخليك * * فى حياتك يا آبا ارساني *

والأصابع الطويلة المعجوز تقبض على الكأس
المشعشع بالكونياك الأصهب ، بلا اهتزاز ، أظافرها
القوية الصلبة بيضاء مصفرة من الدخان ، عاج قديم
فى النور الأحمر *

ماذا نسميها ؟ يارب احفظها يا رب ، ابق على
حياتها * هذه المرة ، كم مرة تولد وتموت ، أوشك
الأسبوع أن ينقضى ، هل هو غدا أو بعد الغد سبوعها ؟
هل سيكون هناك سبوع ، ودقات الهون ، ورش الملح ،
وهز الغريال بالحمص وحب العزيز * والبقلة الحمراء
بالشموع ؟ أخذ السطوع الوضئ فى ذهنه يخبى ،
وتنوشة غاشية غيابات تمضى سراعا ، كأنه ينسى ثم

يعود يتذكر • مختارة ، صفية • وهيبة • جسم واحد صغير ، مضغة رقيقة تصرخ ، لما تكذب تتعرج حتى تسقط ضاوية جافة ، مكسوة • حمل ما أرقه وما أهون ثقله ، يحمله ، كل مرة ، كل مرة يا رب ، على ذراعيه ، الى تحت • ويحمل الاثم والخطية ، معه كل مرة • لم يغمر الجسم الصغير الهش أبدا في قلاية التنصير المملوءة بالماء المقدس ، لم يصل عليه أبونا في الجبانة ، على الطرف الغربى ، هناك فى الآخر بعيدا عن بقية القبور ، ليس له الحق ، هذا الجسم الصغير المنبوذ الموءود المنتهك • ليس له الحق فى شيء ، الخلاص بعيد ، فى اليوم الأخير ، بنته الواحدة الكثيرة لا مكان لها فى الأرض المقدسة • ثلاثة ملائكة صفار ، بجانب المسيح • ينتظرون أبد الدهر ، أزمانا لا نهاية لها ، طوال قيام ملكوت الأرض ، حتى تأتى الدينونة ، ويأتىهم المسيح فى اليوم الأخير • يحملهن بين ذراعيه ، مسدود العينين ، ويقبلهن بشفتيه السوداوين ، يخلصهن للمرة الأخيرة ببحننهم المصلوب المطعون القائم من بين الأموات ، ويقول لهن ادخلن معى ، الى ملكوت أبى ، الى بطن مركب مضيئة سابعة فى السماء الى أيد الأبدى •

ولم يستطع يوم الأحد الماضى أن يوافق على أن ينصر الصغيرة الجديدة ، ولا أن يعطيها اسما ، سوف يحتمل ثقل المخاطرة بالخطية مرة أخرى ، نعم • ورفض أن يأتى أبونا ليصلى ويرش كل شيء بالماء المقدس

ليطرد الروح الشرير من البيت ، لو قبل فانما هو بذلك
سوف يعدها — هي أيضا — لمراسيم موتها ، من جديد •
لا • لا • تظل من غير تعميد ، من غير اسم ، كأنه يخفيها
عن بصر مترصد يتلمس أين هي • حتى ينقضى الاسبوع •
كأنه يخدع أحدا ما عن حقه الصارم القاسى ، ويختبئ
بطفلته بعيدا عن هاتين العينين • كأنها لم تولد بعد ،
مغلقة عليها فى لفائفها ، فى الغرفة • نعم • • ولكن
معها أمها • • لا يستطيع أبدا أن يحسن اخفاءها عن كل
عين • • عن كل خطر • • معها أمها • • معها أمها • •

زجاجة الماء المصلى عليه ، بين يديه ، فيها تهديد ما •
شفافة ، وثقيلة ، ثقيلة لا تحتملها أصابعه • يكاد
يفلتها فتتكسر على الأرض ، ويتشبث بها مع ذلك بخوف
وأمل • يا رب ، اتركها لنا ، انسها يا رب ، اتركها
لنا ، هذه المرة ، يا ستنا العذرا • • يا أم الطفل ،
شفاعتك يا رحيمة •

— رحمة • • رحمة ، نسميها رحمة ، على اسمك
يا أم المراحم يا عذرا • •

مكتومة ، ندت عن نور مضطرب يبرق وينطفئ
فى ذهنه ، لكن عيتى أبيه كانتا حجرين ، صلبين ،
ثابتين عليه ، لا تطرفان •

— امتى تعزمنا على جوزين حمام يأسى فانوس ؟
واللا بس الحمام غية يعنى ، واللا يعنى الحمام غية ؟

وابتسم ، على الرغم منه ، بينما كان الوجه
الأسمر المجذور اللحيم يتهدل وينكسر مرة أخرى في
ضحكة السكر المهدودة المتماوجة . في الضحكة الحسية
الخشنة ايماء بذىء بسخونة اللحم واندلاع شهوة
مكتومة وهشاشة العظم الرقيق يتهشم بين الأسنان
القوية ، وطراوة الصدر الصغير مع كأس الكونياك .

— واللا الحمام غية ..

وهو يسعل ، ويكرر نفسه ، في غياب السكر ،
ويهتز جسمه الضخم في آخر اندفاقات الضحكة
المتحشجة المكتظة ، لا تكاد الكلمات تخرج من أحشاء
الضحك المملئة .

— أبدا يا معلم جورجى ، وحياتك دا الحمام حتى
خايب السنة دى ، ولسه ما عملش جوزين على بعض ..

— الله يا ابنى ما تشوف الحكاية ايه .. لازم فيه
عرسه بتخطفوك .. واللا البومة الى لا بدة على رأس
البرج .. والله أنا سامعها بودانى يا آبا ارسانى ..
سامعها الليلة وأنا جاي حداكو من قدام الجنينة ، وسامعها
ليلة الجمعة الى فانت على طول .

أى والله ، يجب أن يصعد البرج يوما ، ويخلص
من هذا الهم الآخر .. حكاية البومة هذه ، أو العرسة ،
أو الحدادى أو الصقور ، ما من أحد يدري .. تقتل
أفراد الحمام أولا بأول ، وعندما يذهب يطل عليه

لا يجد الا الريش الصغير ملوثا بدم جاف قليل ،
والأصابع الصغيرة الملتوية في القدم المقطوعة ملقاة بين
لفائف ورق الجوافة الذابل .

كانت العينان الواسعتان المضيئتان تنتظرانه ، في
عتمة الغرفة العلوية . وهو يدخل ، يحمل المدفأة مازال
يتقد فيها الفحم بناره الحميمة المكنونة ، عليه طبقة
رقيقة بيضاء من الرماد المشقق الناعم . وضع المدفأة ،
بخرص ، على الأرض ، كأن كل حركة منه زلزلة في
الغرفة وفي جسمه كله ، ولزام عليه أن تكون كل اشارة
وكل ايماء ، وكل انحناء ، موزونة محسوبة ،
والا اختل توازن هش ما ، وتقلبت أعاصير ثقيلة
متربصة ينبغي أن تظل محتبسة راکدة . لا ، لم يشرب
أكثر مما ينبغي . وابتسم ، أو لعله شرب . وماذا
يعنى ؟ عندما صلب عوده ، صدمته العينان المدورتان
ضدمة أخرى ، من على السرير بأعمدته النحاسية وملاءة
التيل البيضاء التي تدور حوله ، وتتدلى ممزقة هنا ،
متهدلة هناك ، وان كانت مازالت توحي له ، بمجرد
تهديلها الثابت دون اهتزاز ، بعمق لياليه التي لا غور
لها ، محتشدة بالجوع والتجنون والمضض والجنوط
وسورة الأيادي والأطراف وتلويحات حيوانات الأجسام
وصبرخاتها وتحليقها مشرعة المخالب مفتوحة الأفواه .

في فتح الباب ، اهتز خشب الشباك وأخذ يصطدم .
وهو يرتج من عصف الهواء ، اصطدامات سريعة متلاحقة

بأركان الحائط وبالأكوام الصغيرة التى تسنده ، ونفذ منه فجأة تيار متقلب لافح البرد ، فاستدار يحشر الباب فى حائطه ، فيحتك التراب بالأرض غير المستوية . وانقطع تيار الهواء ، فكسل عن أن يذهب للشباك ، كما كان فى نيته ، يعيد احكام اغلاقه بالخرق يدفعه بمشقة الى مستقره من الحائط الطينى .

وما زالت العينان المدورتان المشعمتان فى عتمة الغرفة تحيطان به ، فسيحتين ، دافئتين ، مياهما راكدة حوله ، تحاصرانه . وخطا الى السرير يسبح فى عنصر العتمة يحمله متموجا خفيفا ، صاعدا هابطا فى رفق ، من غير جهد ، ولكن فى احتياط واتزان دقيق . وعندما وصل الى مرساه غاص جسمه قليلا تحت ثقله نفسه ثم هب هينا ، يجذبه بمجرد الاستسلام له ، الى أعلى .

وألفت عيناه العتمة ، وعظام الوجه الهشة الحادة ، وفى وسطها بركة العينين الصامتتين ، وشعرها المجمع غير المسرح ، فى خصل صلبة تقريبا - سقط جانب وجهه على المخدة ، بطنها هش مشفوط ، أضلاع صدرها تبدو تراثبها تحت الجلد الأسمر المشدود الغض ، وفتحة القميص الرمادى الخشن واسعة ، فى طرفها تصلب قليل حائل تلمسه العين ، من بقع لبن جاف ، وتحت وجه الصغيرة ، فى لفافتها ، تمص حلمة الثدي بشره مصمم غائب عن كل شئ آخر ، واليدان الدقيقتان تتلمسان الثدي الصغير ، تتكشفانه وتدعوانه وتتطلبان

منه ، والوجه المحققن محبوس الدم ، داكن ، لاهث ، في
كتمة الرضاع الدؤوب الذى لا يهن تصميمه وتلمسه .
ارتعش قلبه لها ، والشفتان شرطتان ملتصقتان على
الكرة الصغيرة التى تنبض بالحياة ، قابضتين ، مدفونتين
فى اللحم المضغوط . الذراع العارية القوية تحيط
بالصغيرة ، عظمة طويلة ناعمة مكشوفة منفصلة ،
معقوفة حولها ، تحملها على جناح ناحل محرود ، أصابعها
تلتف بالرأس الصغير ، ثابتة الأظافر ، حول عظام
جمجمة لينة معوجة ، تنبض ، ناصلة الزغب .

قال لها تأخرنا هيا بنا فقالت نعم تأخرنا هيا بنا .
ووقفت ، ما زالت شاحبة قليلا من أثر الولادة ولكن
تشطة فى الظلام وأحسها تعد نفسها للخروج .
كان مستعدا . وكان ثم قلق ناهش أيضا لا يكاد
يجعله يطيق الانتظار لحظة .

قالت له الليلة ؟ قال نعم لم يعد الا الليلة .
قال الانتظار لن يؤخر ولن يقدم قال لها ليس
أمامنا الا الليلة قال سنخرج ، سنخرج الآن . شوارع
القرية مظلمة تسفعها ريح متلاطمة نفاذة البرد .
وحدهما يحملهما احساس بالفقدان ، وضرورة
الاستدراك . الآن . ليس معهما رحمة .

ومع ذلك ففى حسه ان الصغيرة قريبة منهما ،
وأنهما انما اليها يخرجان ، وهى وحدها وجهتهما ،

يعرفان أين هي ، ويتفقان في معرفتهما ، دون أن يقول
أحدهما للآخر عن معرفته شيئاً •

فى نصف الليل خرجا إليها ، يخوضان فى قلب
القرية وحواريها ، تجابههما • فجأة حيطانها المصمتة
المسدودة ، ويرقيان ، بلا جهد ، أكوام السباح وينحدران
فى السكك الضيقة المتعرجة اقدامهما مع ذلك لا تحس
موطنًا على الأرض •

الغرض الذى يحمل ثقلهما ويدفع بهما الى الامام
يحيط بهما ، غير مرئى ولكنه محسوس لا يقاوم •

ويهب الهواء بفستانها الاسود المترب ويلتصق
باستدارات الهيكل الشامخ الناعم الأحجار ، وفى خطوته
السريعة المنتظمة الايقاع تتوفز ذكورته من جديد ، فى
حموة داخلية ، فى توق الى الصدر الوافر يهتز بحرية
وثقل لدن تحت النسيج الذى يتكور حوله من دفعة يد
الهواء ، والبطن المقبب الراسخ القوى ، والساقين
اللماليتين المتلثتين ، بقدميهما الحافيتين الكبيرتين
الخفيفتين مع ذلك •

لكن العينين واسعتان ، مضيئتان ، جارحتان ،
فيهما ابهام وصمت ، ناعمتان مع ذلك ، فيهما نداء
وخضوع • لمن العينان ، وما الوجه ؟ الهش الطويل
بشعره المجعد ، طبقة أساسية سفلية من العظام الحادة
تحت وجه آخر ملء بنعمة الدسامة فيه سمرة الشمس

ورائحة الخبيز والحليب وروث الجاموسة السخن ..
خضرة .. خضرة .. العينان السمراوان تنظران اليه
بالحاح ، ودعوة * نظرة الأثنى العارفة الفاهمة ، كأنها
تقول له تعال ماذا تنتظر منى أن أفعل *

قال حنونة نحن نذهب الى بنتنا ونحن نعرف أين
البنت ، خرجنا لنستعيدها قبل أن يطلع عليها الفجر
البارد * العينان صامتان ، فيهما ثبات مجايد ، والتي
تسير الى جانبه ، ومعه : هى كلتاهما معا ، وقد انحل كل
تعارض ، ولم يوجد ، لم يوجد قط ذلك الصراع الذى
طالما عذب قلبه المخنوق ، لم يرتعش جسده أبدا للمسمة
يدها الخشنة وهى تسلم عليه من تحت الطرحة كلما
جاءت فى الصبح عواف يا معلم فانوس بصوت فيه
طراوة وتمنع ما ، لم تسخن أحشاؤه أبدا تحت وقدة
جسمها الفارح الخصيب وهى تنحنى أمام القرن ،
وتركع تحت الجاموسة ، وتمعن الجلة ، وتأتى بصفيحة
الماء من حنفية المشروع على رأسها ، يشر الماء من
صفيحها الأبيض اللامع فى شمس الصبح الباكر ، بل
هناك الآن شبع عميق وتملك ورضا ، وقد اندست
رجولته ، مرارا ، لا حصر لها ، فى هذا الجسم الوثير
الهنس معا ، تحت هذه النظرة الساكنة المغوية معا ، فى
هذا البطن الوفير الهضيم معا ، تحت هذا الوجه الغض
الشاحب المشدود المشرق معا ، فى ذلك الكيان الأصيل
القديم المشترك المعذب المحبوب الذى لا قلق فيه أبدا .
وقفنا فجأة ، فى نفس واحد ، لم يتبادلا كلمة

ولا نظرة ، وسكت الهواء مرة واحدة • كان البرد هادئا ، رازحا تحت سماء نصف مقمرة بها غيوم قاتمة مقطعة كأنها ملتصقة بجلد السماء المتوتر الناشف ، ظلال القمر السوداء تسقط على صلابة الأرض ، حالكة السواد • من ورائها سور السراية القديمة ، حجر ضخيم رمادى مرصوص ، تقع عليه فضة القمر المصيبوبة ، تحدد خطوطه وتمرجاته وآليافه الخشنة وحياته الرملية البيضاء التى يتقشر عنها جسد الحجر •

البيان مغلقة والشبابيك مظلمة ، والفناء وراءها فيه نفح الهجران والخواء ، واسع موحش بأشجاره العالمية الأثيثة • واصطفق مصراع نافذة على غير انتظار فى الصمت وسكون الهواء ، وخبط بحجر الحائط ثم ارتد ، ليس هناك أحد يفلقه أو يفتحه •

فى ذهنتهما شيء واحد مشترك : لا ينظر أحدهما الى الآخر الآن ، أبدا ، أبدا • شيء يعقل لسانه عن أن يقولها ، بينهما اتفاق معقود قديم •

وهو مع ذلك مهموم معنى مدفوع به الى أن يتكلم ، الى أن يفتح فمه ، وفى حسه انه بالصمت وحده يحوط على كنز ما ، يصونه من فقدان ، وله عندئذ أمل فقط فى الخلاص ، وانه مع ذلك مشدود مشبوح بالرغبة فى أن يلتفت اليها ، ولكن الأمل الانانى الذى يخزى له قلبه ، يكبحه ، وهو يكثر عليه بقبضة أسنانه فى وقت مما •

عليهما أن يخطوا الآن ، الآن دون انتظار لحظة واحدة ، على هذه القنطرة الخشبية فوق ماء الترعة ، الى الشط الآخر • دون نظرة للوراء • هناك ، بعيدة ولكنها مرئية تملأ العين ، لفة صغيرة سوداء في دائرة الفضة الراكدة ، مرمية على الرمل المرتفع الأبيض ، وسط الخلاء • فى مواجهة السراية •

لفة صغيرة يمتد اليها كل قلبه بأذرع مشدودة أصابعها ترتجف من فرط التوتر ، مجبوبة ، فى فراغ أحشائه • ظلال سور السراية وفضتها تنعكس فى مرآة الترعة الخضراء الداكنة ، غائرة ، ذاهبة الى أسفل ، حتى نصف القمر الذى يسطع مقلوبا فى عمق سحيق ، بين الغيوم الواقفة السوداء •

ظلال السراية كلها ، بأبراجها المدورة الحجرية الواطئة ، بنوافذها المسدودة ، وبابها الخشبنى الضخم المنحوت بنقوش دائرية هندسية ، فى وسطها صليب بارز مربع الأضلاع ، وحول أطرافه استدارات كأجسام الزهور ، كلها محددة دقيقة المعالم ، تحت ، فى ماء الترعة • انت تعرف ان هذا القصر لا وجود له ، وزائك ، معرفة اليقين الذى لا يحتمل الشك • وان كان لا يمكن أن تلتفت الى الوراء ، لا يمكن ، تحت تحديد خطر صارم تعرفه ، ومع ذلك لا تعرف كنهه • لا تعرف ماهو ، لكن تعرف انك لا تستطيع أبدا أن تلتفت للوراء ، وتتمنى من أعماق قلبك أن تكون هى أيضا عارفة •

نعم ، بل هي تعرف ، ولا يمكن أن تنظر هي أيضا ،
اليك ، والى السراية • أنفاسك المكتومة تتسارع من
رعب القلق ، لا تنظري • لا تنظري • شط انترعة
يتحدر هينا ، ومراة الماء المخضرة صافية الوجه ، الباب
أمامك الآن ، تحت ، فى الماء ، ما عليك الا أن تنزل من
على خشب القنطرة ، أن تخطو على تربة الشط الرملية
المخضلة المتماسكة ينز عليها ماء خفيف ندى ، وأن
تهدى خطواتك فى العالم المقلوب تحت الماء ، الى اتجاه
باب القمر تماما • انت وخذك •

هي تفعل نفس الشيء أو هي تفعله معك ، فى وقت
واحد • لا تراك • ولا تراها • ولكنها منك ، هناك ،
هي فى داخلك ، وخارجك • لا تراها وهي ملء
عالمك ، دون أن ترفع بصرك ، مها خطوة بخطوة ، تحت
السور العتيد ، الذاهب الى ارتفاعه المعكوس تحت ، فى
السماء المائية نصف القمر • حتى اذا وضعت قدميك
أمام الباب مباشرة ابتلعك القصر فجأة ، ووجدت نفسك
فى داخله ، فى داخله ، فى الفناء ، تحت السماء هناك ،
وأغلق الباب ورائك دون صوت ، ودخلت ولم يعد هناك
أمامك ولا ورائك شيء ، لم يعد هناك باب ينفتح لك مرة
أخرى أبدا ، لم يعد هناك الا السراية المهجورة الخربة ،
يحيط بك سورها المتهدم العالى ، لا منفذ منه ، لا ثغرة
فيه ، انت فى الداخل ، لا مخرج لك أبدا ، تظل تدور
فى البرد الثقيل الصامت ، تحت الأشجار المتكاثفة
البالية ، وعلى الأرض ورق الشجر قد سرى العفن الى

الأرض المخضرة بالطحلب تحته ، عطنت ثمار البلح والجوافة القديمة التى سقطت بين طبقات الورق المتراكم من سنين عديدة ، جف وصوح فوق طين آسن ، تدب فيه حشرات الأرض البليدة السمينة وعناكب سوداء ، بطيئة بما تحمل فى بطنها من نخمة العفن .

فى هذه الممرات ، بين أشجار عجوز عليك أن تدور ، دون نهاية ، تحت النوافذ المظلمة ، لا باب هناك . لا ، لا ، لا . لا يبدأ . لا ينحدر خطوك الى الماء . حنونة تشبثى بخشب القنطرة ، لا تنزلى ، لا تنزلى معى ، لن أنزل أنا ، أبدا ، أبدا ، هناك ، أنظرى ، على الشط الرملى الأبيض بنتنا . ذراعا ممدودتان ، عيناه مشدودتان ، قلبه مشبوح مسلوب ونظره معلق بالقامة النحيلة الشامخة فى الجلابية السوداء ، على وسط خشب القنطرة المقوس قليلا ، مرتفعة عنه ، تنظر اليه من فوق ، بعينيها الواسعتين فى القمر ، صامتتين ، دون غواية ، ودون اداة .

والحدادى العريضة الأجنحة تدوم وتحوم تحت صخور الغيم فى السماء ، هائلة الأبعاد فى انفساح جناحيها ، تدور دورات متتالية هابطة ، وهى تتضخم ويتسع انبساط جناحيها الساكنين دون حركة ، ثم تنقبض بصمت ، ونعومة . على اللفة المرمية وسط الرمل الأبيض المرتفع ، وراء الشط الآخر ، وترتفع ، مناقيرها خالية ، وتحلق الى علو بعيد ، ثم تعود ، وتعود ،

وتعود ، دون صوت فى كل مرة ، ليس فى مناقيرها المزع
الممزقة التى لا يطاق مراها ، فى هذه الدورة التى
لا تنتهى .

فى اللحظة التالية كانا معا ، تحت الماء ، فى التربة
المكرة السمرة ، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة
السائلة معا ، واندمجت ، وتقلبت فى اهتزاز الموج
البطىء . والماء قابض وضحاح ، والأرض تميد
تحت جسميهما ، لا تكاد ، لزجة ، رملية ، ويشبان معا ،
ويخبطان بالأذرع ، ولا رشاش هناك ، يحتفظان بالوجه
فوق الماء ، يشهقان فى طلب النفس ، ثم ينقلبان فى
الماء معا ، دون غرق ، يحتضن بين ذراعيه الجسد المبتل
الذى التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها ،
فى شفافية محسوسة ، تدفعه ليلتصق بكل استدارة
فيها ، ويطفوان معا ، فى تموج متماسك ، متمددين ،
يحملهما الماء دون جهد ، ولا يخرجان فوق سطحه ، والماء
قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيهما المستديرتين
اللامعتين من البلل ، فى لحمها ، تحت يديه ، بضاضة
جديدة طازجة تومض فى عتمة الماء المقمرة نصف
الشفافة ، والقمر يلوح ويختفى الآن من فوق الموج ،
يشع وينطفئ ، قرصه نصف الدائرة يهتز ويتسائل
ويذوب ويعود الى الاستدارة الساطعة الصلبة الحدود .
والزمن طويل ، وخاطف ، ولا حس له به ، وذراعا
العاريّتان تحيطان بالفخذيّ الشامتين تحت الثياب

المبتلة ، وجهه غارق ، توتره الراضى المرتاح لا ينتهى ،
وفي فمه طعم الماء واللحم العذب المضطرب :

قال لها تأخرت كنت أريد الخروج مبكرا قالت له
نعم تأخرت لا تريد أن تفطر قال لها افطر فيما بعد
قالت نعم وكانت الشمس وراء الحوض الشرقى هناك
ومع ذلك لا يبدو انها قريبة الشروق كأننا ما زلنا فى
أول فجر دائم مقيم لا يتحرك معتم وشفاف معا والسحاب
الرمادى الزرقة مشعث الأطراف والهواء الباكر يسف
بالتراب من على صحن الجرن الواسع النائم بحفرته
العريضة الفائرة الجافة ، والبيوت جواليه مائلة متساندة
رثة فى نصف دائرة مضطربة تهبط أرضها وترتفع حول
الجرن .

وكان يسير مسرعا محنيا رأسه أمام ضربات الهواء
الجاف ، البرد غير مشبع وغير بليل يخز العظام المرهقة
الخواوية ، والفلاحون يلتفتون إليه فى طريقهم للبعيظان ،
وعلى أكتافهم الفتوس والمخللة الخيش والمقاطف . .
السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله ، لا يعرفه ،
أو لا يذكره ، وهو يقضم فحل يصل فى يده الضخمة
السوداء المفلطحة الأظافر ، خشن الوجه من النوم ،
على رأسه منديل معقود ، ومن ورائه تاتى عجلة مسرعة
والجلباب يطير بين الحيطان المصبطة . وانجرف فى
السكة المؤدية الى الجنينة ، وهو ينزل وساقاه تتقاربان
وتتداركان فى سرعة تحدر السكة حتى وصل فجأة امام
دكان الطوب النىء المفتوح على الجرن من الناحية

الأخرى • كان الرجل غارقا فى حفرة طينية لزجة واسعة ، وحواليه فى الدكان قوالب الخشب بمستطيلات المتجاورة الفارغة ، ملقى بها على الأرض ومنصوبة على الحائط الرمادى ساقاه تفوصان حتى ما تحت الركبتين ، كأنه على عتبات النزول فى البركة المصفورة التى تنز بماء قليل صدىء ثقيل الوزن • وهو يعجن الطين والتبن بذراعيه المفتولتين المبطختين بالوحل ، ينحنى بصدره القصير المدكوك المتين ويعتدل ، يملا فراغ الدكان ونصفه مدفون فى الأرض ، قميصه مقور الفتحة ، مقطوع الكمين ، أسود جاف يتصلب ، وذقنه الكثة تخفى فما واسعا غليظا تحت الشارب الغزير الحالك ، عيناه حفرتان عميقتان ، وهو يلقي بالسلاسل ، كأن فيهما لمة سخرية •

وعندما خرج الى الزراعية فى طريقه الى جنينة الجواقة كانت السماء مازالت كاسفة الزرقة ، كابية ، باردة ، مسجاة • كانت الساقية الحديدية بلونها البنى المحروق صامتة مبلولة الصدا من ندى الصبح ، تشق البشر وترتفع تحت ظل شجرة التوت العريضة الجاثمة ، حيث نور فجر أكثر عتمة وأقل شفافية ، وإلى جوارها خيمة العساكر بيضاء باهتة ، تبدو متهدلة غير مهمة ، وبجوارها عربية الجيش المصفحة ، ودبابة صغيرة من طراز قديم كأنها لعبة معدنية بلونها الأصفر المطفى الجديد ، ولكن مدافعها الرقيقة الطويلة الارتفاع ، تحمل كلها قوة كامنة متربصة تحت المعدن الذى يبدو

مع ذلك هشا ، وعليه أرقام وحروف لا يكاد يقرأها
من بعيد *

منذ مدة طويلة والاخبار والاشاعات تجرى بأن
اللجنة قادمة للتفتيش ، ولكن العمدة يضحك ويهت في
الناس • جاءت اللجنة أخيرا اذن ، ومعها قوة • كنا نظن
انهم سيكتفون بمندوب الاصلاح في المركز ومعهم عساكر
الأمن وضابط من المحافظة على الأكثر ، ولكن هذه هي
اللجنة ، ومعها قوة • يا فرج الله ، لابد انهم أجروا
التفتيش الليلة الماضية في السراية • أخيرا •

أمامه اليوم عمل كثير ، وسين وجيم ، ينفض ما على
قلبه • ليس لديه اثبات ، صحيح ، لكنه على يقين ،
وسيقول ، سيتكلم بالعقل يا وله • بالعقل يا فانوس ،
اوع تصرخ أوع تهبل ، ما عليهم الا انهم يطلبوا الدفاتر
كلها ، والفلاحين كلهم ، ويحققوا • وسيعرفون ،
سيعرفون •

هل يتكلم الفلاحون بعد الصمت الطويل ؟ هل
يتكلمون أخيرا ؟ ويقولون عما في القلب من هم وغم ؟
والعمدة هل يكون موجودا عند سماع الأقوال ، ويشنط
وينظر ، ويجيب سيرة الآباء والأمهات والأخوات هل
تنفك عقدة اللسان ، ويكشفون الورق ، أم تطويهم
اللعبة من جديد ؟ فيهم ، نعم فيهم عيال بقلب جديد ،
والسنة الكرابيج • • آه يا ولاد ، لو أفش غليلي ،
وانقع السم عن قلبي ، وأشوف فيهم يوم •

دفع باب الجنينة وخطا بين أعواد حطب الذرة
النحاسية الداكنة القشرة على التراب ، فى تقطر نور
الصباح المبكر ، تحت السنطة القديمة المجددة بعقدتها
الخشبية الناتئة ، وبين أشجار الجوافة القصيرة ،
مصفوفة ، منشعبة ، فى خطوط هندسية ، والممرات
التراب بينها مغطاة بأوراق صفراء ومخضرة هشة ضامرة
تخشخش تحت قدميه وتهشم ويطير بها الهواء .

وملاً عينيه البرج الجاثم الطينى ، بثقوبه
الصغيرة ، رازحا ، دائريا ، غريضا ، من تحت ، يستدق
وهو يرتفع ، وتبرز من أعلاه نتوءات خشبية من كل
جانب ، كاشواك فى جانبى فم حوت برى ، جسده من
الطين النقي . وأسند السلم الخشبي النقالى الى جسم
البرج المتين ، وراح يرقى العوارض الرقيقة الحرجة ،
ممسكا بقائمتى السلم الجانبيتين ، يدرج ، فى كل
خطوة الى أعلى نحو سماء مسفة هابطة اليه ، مهددة ،
وقد أخذت هبات الهواء تصفر ، وترتطم حواليه ،
وتلصق جلبابه الصوف بجانب صدره مرة ، ثم تنفخه
وتملؤه حتى يكاد دفع الهواء يحمله ، رغما عنه ، ويلقيه
الى تحت ، فى هوة الفراغ ، نحو الأرض التى تبتعد ،
وتصفر ، وتبدو تحته قاسية ، غير مرحبة ، بأشجارها
المصفوفة التى يرى ، من فوق ، نواصيها المتكاثفة تبرز
منها الأغصان المدبية العارية الأطراف .
الفيضان تحته ، وهو يرتفع ، موحشة ، خاوية ،

ناثمة فى نور مبهم ، زروعها قصيرة ، مقرورة ، ترتجف ،
والقنوت بينها متعرجة بمياه مسودة ، وهديل الحمام
رتيبا ، ملحا ، يتردد فى السماء المغلقة ، يخطفه الهواء
منه ، فيخفت ويبتعد ، ثم يعيده الية فى نفحة باردة ،
متضخما يملأ البرج والسماء معا بطنين ناعم مستمر
مضطرب ، وخفق الأجنحة فى هياج الريش الوثير
الرقيق ، وهى تتضام على قباب الصدور المثلثة بشهيق
متخم بالأنفاس المختزنة ونفث الهديل ، بزغبها الملون
المتقلب الألوان فى النور المكتوم ، يتموج عليه الريش
الناعم رماديا ورصاصيا وأزرق وأبيض ومخططا
بخطوط منسابة اليفة . وهو ينظر فى كل خن ، ويمد
يده الى الدفء الضيق الزخم برائحة الزبل الجاف
الحريف ، ويتحسس العوارض الخشبية الناتئة من
البرج ، تحت يديه ، قوية الألياف ، متينة ، عليها بقايا
الزبل الأبيض فى تخثرات صلبة الملمس مشعثة الحواف
تتبدى بينها فجأة عضلات الخشب الخشنة الرفيعة
المفتولة محترقة من طول التعرض للبلل والشمس .

ويطير الحمام من على العوارض ومن الثقوب ، ثم
يعود ، أيسر متثدا برشاقة متعيرة ، يدير رأسه كل
ناحية ، وينقر تحت جناحيه وفى صدره بالحاح وبحث .
ويغوص برأسه فى الصدر الأصهب الأبيض ، غارقا
بعينيه فى نعومة الشعر ، والمصافير تزقزق ، متفزعة
خفيفة لا وزن لها ، ويأتى اليمام البرى نحيلا ، ينظر
اليه كأنما لا يكاد يقبل وجوده هناك فى العلو الفسيح

الذى ليس له مكان فيه ، يرتفع باستمرار دون وصول ،
ويظل يرتفع ، بلا نهاية • اليمبام الذى لا تربطه به
رابطة ، كأنما يتنازل حين يرضى بأن يجسو مائه ، أو
يلتقط الذرة والغلة من برجه ، طليقا ، غير مقيد بحب
الناس •

استدارة البرج تحت يديه دافئة فى الصباح الغائم
الشاطئ ، بطينها الجاف المخطط بخيوط التبن التحاسية ،
وهو يتحسسها ، ملء ذراعيه ، فيطير الحمام قليلا الى
بعيد ، ثم يعود الى العوارض الخشبية ، ويهرب الى الخن
المعتم الداكن ، ما يزال يهدل وينوح بايقاع رتيب
لا يفرغ أبدا • قدماه تهتزان على عارضة السلم ، وهو
يعلو يسند جسمه كله ، لحظة ، الى الجدار الممتلئ فى
دورانه العريض البطيء • يسرى اليه ، من الحياة التى
تعمر داخله ، دفء ناعم ينبض فى أنين خافت مستمتع •
وجهه قريب جدا من الحائط الطينى ، فى عظامه جوع
الى الاقتراب منه ، والتمرغ على صفحته البضة المتلقية •
الجسد الطينى الباذخ يصعد الى الهواء ، شامخا ، من
فوق عينيه الزطامئتين المحترقتين • يحتضن البرج احتضانا
وثيقا متشبثا كأنه فى قبضة صراع قاتل لن يسلم فيه
أحد الطرفين •

لا يكاد يرى قمة البرج ، تتخيل له ، على السطح
المقرب البعيد ، عيانا واسعتان فى عتمة غير مستبينة ،
والأيدي بمخالبها المقوسة تقبض على ذؤابة قلبه ،

وتعتصره ، تلقيه ، فى عناق الصراع الصموت ، شلوا
جافا فى ظلمة مقفلة أرضها من طين ناشف عار . انها
هناك ، جاثمة فى مأواها ، لا تنال ، منيعة لن تطولها
يداه قط . لن يستطيع الصعود اليها ، وهو يرفع
جسمه ، بجهد ، الى العارضة الأخيرة الصغيرة فى السلم
الذى يتذبذب أهون ذبذبة ، لا يكاد يتأرجح ، ولا يسقط .
ويمد عينيه الى الخن الأخير ، وقلبه يهوى منه ، ويتردى ،
فى معرفة سابقة بما يراه ، ويراه حقا فى عتمة السكن
الصغير الخاوى ، رأس الحمامة الصغيرة المعوج العظام ،
ملقى به على الطين ، مبتورا . على جلده الشفافة زغب
مشئت هش . والقدمان الصغيرتان ، بأصابعهما الدقيقة
الحمراء ، مقطوعتان ، لم تكد تنبت لهما المخالب الصغيرة
الوديعة ، مشلولتان ، ملتويتان ، كأن الحياة قد غاضت
عنهما فقط منذ لحظة . وكومة صغيرة من ريش متناثر ،
الحمامة الصغيرة اقترستها ، قبل الفجر ، نظرة ثاقبة ،
صلبة قاسية . وكأن فما فاعرا فى داخله ، محفورا فى
جدار نفسه يصرخ صرخة طويلة لا تنتهى ، تنوح
بلا أمل ، يتردد صداها ، حتى الأفق الغامض بين دغلات
الأشجار الصغيرة فى البعد ، المثقلة بأحزان الصباح
الجديد .

لا يرى شيئا على سطح البرج المكور المصقول ،
لا يجد على الجدار القاحل المسدود ، ذراعا تغانقان :
بلا جدوى ، ولا تحقق ، استدارة دافئة ناعمة ولكن
متماسكة لا تلين .

ونظرتة لا يستطيع أن يحولها ، من وراء أستدارة
البرج التي تسد نصف الأفق ، عن المرتفع الخشن
بنباتات الحلقاء الشائكة ، تمتد جنبه وتحت مياه النشع
الملحي المهجور ، والطين المنطى بكسر من الملح الصلب
الرمادى يلمع فى نور الصبح الغائم . وعلى المرتفع
نتوءات القبور المستطيلة المحدبة الظهور ، بصلبانها
المعوجة الساقطة ، صغيرة ، مهملة ، لا أهمية لها ، تحت
الأغصان الملتفة المتراكمة ، المضرجة بنقط دموية
قانية ، غضة الاحمرار ، فى الأشجار الكثة الوحشية .

الاسكندرية

٧ سبتمبر ١٩٦٩

فِي الشَّوَارِعِ

كانت العينان اللتان تنظران اليه قاسيتين ،
معاديتين ، يعرفهما طول عمره • تواجهانه ، بصمت ،
من غير لغة • ولا يريد أن يرد عليهما •

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الفارقة
في رغبة دمثة • معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على
الجلد ، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح • وفي
الحمام هدوء ضوء الصبح النائم ، ويأتيه فحيح البوتاجاز
خافتا من بعيد ، تحت ماء يغلي في أمان • وقد انجابت
فرقة أتوبيس المدرسة من قليل ، وذهب يحمل الأولاد
وهو يعوى بزمارة دعنية صخابة ، ويرتج لمروره زجاج
البيت •

ربنا يستر • لعله لا يطلع عليهم في الطريق ،
وتحدث حادثة •

هذا القلق نقطة ضلعية خشنة الحواف لا تنخل ،
ولكنه ، بشكل ما ، ينعمه ويصقله ويغطيه ، لا يذيبه
ولا ينسأه ولا يتجاهله ، بل يقبله ولكن يدفعه بعيدا

تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شيء * * وماذا يوسعه أن يفعل ؟ كل الناس تتكلم ، ولكن الصحف والاذاعة والتليفزيون لا تقول شيئا ، باصرار * لا أحد من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه رآه رأى العين ، أو سمعه بالفعل بأذنه * كل الناس سمعت من مصادر ثقة ، كل الناس عرفت من أصدقاء وأقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجوا اشاعة لا أساس لها * سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر ، ولكنها تحرص أن يكون ذلك من غير اعلان ، حتى يأتى اليوم المشهود *

وهو لا يكاد يصدق ، أو يصدق * ولكنه لا يمتقد ان الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة * قد يكون صحيحا * لعله فعلا يمر بالشوارع ، هناك ، بعض الشوارع ، ولعله فعلا يهاجم الناس ، ويقع المصابون ، ما من أحد رأى شيئا حقا * ولم يظهر فى طريقه على أى حال ، ولا طريق الأولاد فى المدرسة *

صحيح انه التقى ، بمحض الصدفة ، باثنين أو ثلاثة من معارفه القدامى * وكانت الأخبار قد ترامت اليه انه اعترضهم فى الشارع ، وان شيئا ما قد حدث * أصابتهم جراح ، ويقولون انهم يحملون آثار تشوهات * لكن لم يكن يبدو عليهم شيء ، لا أثر لجرح ، أو صدمة * لعلهم يحسنون اخفاءها *

كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر طبيعي جدا أكثر قليلا مما يمكن لك أن تنتظر . وسلم عليهم هو أيضا ، بحرارة أكثر قليلا - قليلا جدا - من المعتاد ، وتبادلوا التحيات والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله ، وانصرفوا . لم يسيروا الى شيء ولو من بعيد ، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله . هل فى نظرتهم شيء بعيد ، غائب ، أو مكتوم ؟ ربما كان هذا كل ما فى الأمر . وهم يستحقون ما وقع لهم على أى حال - ان كان قد وقع لهم شيء . لماذا يتصدون له ؟ لماذا يخرجون اليه ؟ ما لهم هم ؟ فاذا كانوا قد ذهبوا اليه ، فى سكتة ، عمدا أو عن غفلة ، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم ، من الأول . ونالوا جزاءهم على كل حال .

كانوا اذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة ، أو استحقوا ما يجرى للغافلين . ماذا حدث لهم ؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة الى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة ؟ ماذا يمكن أن يحدث - على أى حال - فى الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة ؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة ، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بتراب خفى عنيد صفحات وجوها الذابلة المتساقطة الجلود ؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التى لا تنتهى بالجلاليل والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات ، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية ، أمام

الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعة الحمولة ، بين عساكر المرور يعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة في الملل والعرق ، على الأسفلت المشقق ، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع ، والخضرة المصفرة الساقطة ، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة . بين أكشاك السجائر والبضائع المستوردة ، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف ، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة ، والتاكسات المكسرة ، والعربات الكارو والترامويات وعربات الفاكهة والفجل والجزر ؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم ، أن يكون قد فعل بهم ، في الشوارع ، في وقدة الشمس العارية البديئة وفوانيس النور وإعلانات النيون ؟

كانت دفعات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه ، يجمعها بين راحتي يديه من تحت الحنفية ، ويطس بها وجهه ، ويلقى بها على رأسه ، فلا يسمع الا صدمات الشلالات الصغيرة المفاجئة ، وهو يشهق باستمتاع ، وعنف ، ويجفف وجهه كأنما يكحته ، كأنما يريد أن يمحو شيئاً لا يرى ولا يمحي .

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصا بالناس ولكن صامتا ، على حافة النيل . وقد فتح الشباك الى جانب وجهه ، وساقاه مرتفعتان في وضع حرج ، قدماه على الاستدارة الحديدية الناتئة فوق العجلة الأمامية ،

ناعمة ، مكشوفة بان صدورها ، والزحمة قد تحولت الآن الى نوع من العجينة الثابتة الرخية ، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود وصراعات الوقوف والتحرك ، وقطع التذاكي - أو التهرب منه - اصطياذ المقاعد والتربص بها والبحث عن مواطن مريحة للاقدام . وفي داخل الكتلة الضخمة المندفعة كائناتاً رغماً عنها ، لا تملك أن ترد حركتها أو تطامن من انطلاقها ، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة ، بل مريحة ، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التي همدت - في توتر مراح - وأمنت لحظة من لجأه شد وجذب لا ينتهى واحاطت بها جدران ملفوفة ، مصقولة ، توحى بالاطمئنان في قوتها الذاهبة الى غرضها لا تحيد ، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محكمة الرقائق ، بين زجاج النوافذ السميكة المترب الشفافية ، والمقاعد الجندية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانة ، والأعمدة النيكل الرقيقة المدورة - والارضية ، تحت الأقدام ، تهب وتنزو وتنحط في انسياب متموج يقتترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة .

وقد امتلأ الأوتوبيس بهندير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذي استقر ، لحظة ، الى نوع من الرضى والقبول - ما أندره ! - بين الناس بعضهم البعض .

وهواء النيل يدخل اليه ، فجأة ، من على صدر

المياه الواسع العريض ، فيغمض عينيه ، ينفحه الهواء
بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى ، كأنها صوفية ، وكأنه
لم يكن قد أوى الى ذخر من التعلات ، وذكاء الحيوان
الذى يريد أن يتشبث بالحافة ، ولا يقع .

فى وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير
أسود ، يبدو من بعيد مشققا أعجم ، قشرة ضئيلة
نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط ، فى رفق . ينبثق
منها شراع أبيض مفرد شاهق الارتفاع ممتلىء
بالهواء ، روح قوية عريضة الجناح ، تشق طريقها
يتوق ووجد الى السماء الباردة الزرقة ، يحملها جسم
هزيل خشبي ضامر تلعب به موجات صغيرة وسط تيه
شاسع فى سهل المياه الرمادية .

وتحت عينيه شط النيل ينحدر الى التفافات كثيفة
محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص ، ورقعة
صغيرة ممهدة مزروعة ، على الشط ، بأعواد صغيرة من
الذرة المهذلة الشواشي ، وخص صغير مكسور من الخوص
والطين الجاف ، لا باب له ، وعلى الشط الآخر اهتزازات
نور الصبح ، بلا صوت ، بين حيوانات غامضة أليفة
قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنائيات
المرتبة المنسقة ، طهرها بعد المسافة والضوء المائي من
وحشيتها ، وروضها ، وغسل عنها سوقية الحسابات
العارية ، لانت واستكنت ، فى نوع من اللدونة الطفلية ،

تحت نور الصبح وتراوح نغمات الغضرة وقتامة ماء
النيل .

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة ، كاشطة ،
تنوح . لف الأوتوبيس على الشط لفة واسعة ، سريعة
جهد ، ومالت الكتلة الضخمة ، في هدير المحرك الذي
يئز في ذعر وغضب معا ، وأحس العجلات تحته تخرج
عن حافة الأسفلت الصلب الآمين وتثب ، في رجة تهد
العظم ، فوق بلاط الرصيف ، وتحتك ، متشبثة ، بتراب
الشط الهين القوام .

واندفعت من جانبه سيارة نقل ، تكرر في ثقل ،
وفراملها تعول أيضا في صرخة بطيئة ، وأطراف
حمولتها من أعواد الحديد الصديء الناتيء تكاد تخترق
زجاج الأوتوبيس ، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر
الطيني ، منحدره بمقدمتها العريضة الى أسفل ، وتدخل
تحت كتف من جرف بارز ، مجوف ، عريض . الأرض ،
تحت العجلات التي تدور سريعة تتلمس النجاة والحياة ،
لرجة رخوة طينية لكنها تحتل ثقلها ، حركتها الدائرة
الجارية تهيشها في استماتة ، وقد انحسر سقف
الأوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتة تخمشه في
خشونة ولا تنشدخ مع ذلك ، وتمر غيامة خاطفة من
العتمة ، في الفجوة القريبة من النيل ، ولم يعد في
العربة الا لحظة صمت كاملة ، كأنها الأبد ، من غير
أنفاس ، انجابت فجأة كما سقطت فجأة ، والسائق يدور

والناس تهتف وتصرخ وتميل وتترنج ، أذهلتهم المفاجأة
وهبت صيحاتهم ودعواتهم الملهوفة ، ملء عيونهم
تقلبات متعاقبة من الأرض الماء والأسفلت والطين
المتماسك ، والسائق يغير السرعة فى حمى البحث عن
الخلاص ، واليقظة الحادة ، ويضغط على البنزين ،
ويرتفع الأوتوبيس بجرمه الثقيل وقوته الدافعة الى
أعلى ويصعد ، وتتشبث العجلات الأمامية بثبات جديد
فى منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعة الى فوق ،
على أرض تهدد كل لحظة بالانهيار ولا تنهار ، ويتشم
خطم الأوتوبيس الأرض المرتفعة ولكنه لا يمسها ،
ينشق منها نفس حياته ورائحة التراب ، ويشهق ،
شهقة واحدة متقلبة الزئير ، يزوم فى هريره الممتلئ
الصدر ، ويزحف الى أعلى ، باستماتة ، والعجلات ترتفع
على أرض لا أفق لها ، الى حرف السماء تتوغل صاعدة
على جرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان ، فى نفس
اللحظة التى تدمدم فيها رؤوس الناس تحت ضغط الطين
الجاف ، ويتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة
على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع
منها رشاش بطيء ، موسيقى الحركة ، لا شأن له بشيء ،
وهناك ، فوق ، من بعيد ، على الأفق الشاهق الارتفاع
الذى لا تصل اليه العجلات فى دورانها المتماسك الحرج
المصمم الملهوف ، تحت ضفحة السماء ، بازاء خلفية
العمارات الملونة بالبنى المنطفئ والأزرق الكبريتى
الكابى ، هناك ، وحدها ، متميزة قاطعة الحواف ، عربية

تين شوكى ، على عجلاتها الخشبية الدائرية الرقيقة
الفروع ، أخشاب المعجلات المفرغة تبدو من خلالها
زرقة السماء ، رقيقة مشعة من المركز ، منفرجة من
بؤرتها المكورة الصلبة ، فى موسيقى هندسية ثابتة ،
وأكوام الحبوب الشوكية ، عالية ، غضة بعصارتها ،
نباتات عصية وكثيفة الغنى ، لا تبالى ، تحديها لا رد
عليه ، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق
عيناه أن تستقرا عليه •

عندما دخل الى ميدان التحرير آتيا من اتجاه كوبرى
قصر النيل ، فى نور الصبح العارى الثقيل ، وما زالت
قدماء غير متوازنتين قليلا ، لا تكادان تستقران على
الأرض ، ورفع رأسه ليعبر الطريق ، سمع صوت
النافورة لأول مرة ، واضحا فى الشمس ، والمياه تسقط
على الرخام المفكك المتآكل ، وخفيف التراب فى أوراق
الشجر الجافة •

كان الميدان ، تحيط به شوارعه المسفلطة وتخترقه
ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة ، خاويا •
ميدان فى وسط بلد ريفية ، وبنائيات المجمع ، والمتحف ،
والعمارات القديمة ، من ناحية ، زازحة كلها ، وقصيرة ،
ومفلطحة ، بهائم ضخمة كسول حول الجرن ، مدت كتل
أقدامها العريضة ودفنت رؤوسها فى كسومة عظامها
الساقطة ، الهامدة • ومن الناحية الأخرى اقتحام
الهيلتون برشاقة لا حياة فيها ، سوقية جدران مصقولة
حادة ملطخة بمساحات مقطوعة من الألوان الجارحة •

مياه النافورة تملو ، فى غير همة ، وتقع ، متنشئة
القطرات على الحوض المكسور . والمماشى الترايبية
المتعرجة ، خالية ، عليها أوراق ممزقة يتطاير بها هواء
مسف مترب . خلية الأوتوبيسأت الحمراء تموج بنحل
ثقيل قدر ، تطن ببطء وتزاحم ، لا تدور حول مركز
اشعاع ، تنسرب فى الشوارع من غير وجهة . اعلانات
النيون حمراء زرقاء تومض وتنطفئ ، تسطع باهتة
فى النور الجامد المحايد ، لماذا أضأؤها فى نور الصبح؟
وظلال الناس القاتمة فى الشمس ، تسير فى غير سرعة
وفى غير بطء ، محنية ، يحسها قامات سوداء رفيعة رثة
هزيلة مجوفة ، فى وسط اشعاع رازج شامل ، تختط
طريقها الى ركن الحيطان وأمن الابواب والحرايب
والمكاتب والسراير الرثة .

ومرت من أمامه ، كأنما تأتي من عالم آخر ، دراجة
مسرعة رشيقة يدور بها صبي جناينى ، ويستدير
عسكرى المرور ليفتح لها طريقا خاويا لامعا اسود ليس
فيه غيرها ، وخلف الولد ، على السلة الحديدية المعلقة
بالدراجة ، أكوام شاهقة من الأزهار الأثيثة المكتنزة
الجسد ، طرية غضة ، يتدفق غنى ألوانها فى النور ،
فى لدونة لحم حى وثير ، ورقته ، مقطوعة ، ملفوفة الى
بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات ، أشرطة
حمالات تحز فى بضاضة البياض وفى نداوة الألوان
الوردية وتحدى الحمرة اليانعة وكياخة الزرقة المليئة
بالمصير ، خطفت أمامه وابتعدت ، فى كل مجدها

الحسى • كأنما غرق فى لحظة فى طيات جسد امرأة
باذخة ، فى لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة •

كان الجرم الصغير الوديع ، بسنامه الصغير على
ظهره ، يأتى من يمينه ، من ناحية باب اللوق ، بين
سيارات قليلة متباعدة ، تتحرق وتختفى فى الشوارع
الجانبية ، تتجنب الميدان ، وتنسل من تحت اللوحات
الخشبية الضخمة ملصقا عليها اعلانات الويسكى
والسينما الورقية الممزقة الأطراف • وتراءى له قبلة
شرهة بذئنة فاغرة فاهها ، لا تتحقق أبدا ، بين وجه رجل
بنفسجى كامد مخطط ، وامرأة راقدة حمراء عارية
الساقين تاكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة •

اقترب من الشارع الخلفى عند مبنى وزارة الخارجية
القديم ، طويلا ، بارز الأسنان فى وجه أسمر نخيف
العظام ، ووقف بجانبه ، ينتظر اشارة المرور • كان
الطريق مفتوحا • هادئا فى قميصه الأبيض المشمور
الأكمام ، ذراعا مسترخيتان ، تنتهيان بأصابع مستدقة
سوداء الأظافر ، فى ساقيه رشاقة توحى بقوة خفية ،
بمقدرة خارقة على القبض والتملك ، فى قدميه حذاء
تنس من قماش حال بياضه الى سمر •

أحس رغبة أن يقول شيئا فالتفت اليه ، وقال

بجد :

— لماذا لم يضر به ؟

- لا بد أن يأكل •
- لا بد أن ناكل كلنا ، ونعيش •
- الجو حر •
- أول الصيف • الحر جاء مبكرا •
- سنعود بالليل لبيوتنا •
- وأين بيته ؟
- لا بد أن يسير المركب • سواء كان النيل هادئا أم
غير هادئ •
- سيأتى الليل أبداً من السفينة • هذا كل شيء •
- التفت فجأة ، فرآه • لا يتحرك ، قريباً منه فى
وسط الطريق ، وحده •
- كان ينظر الى الجرم الضخم قادما من اليمين ،
بعيون عاقلة وشرسة ، يتربص ، دون أن تختلج فيه
عضلة •
- لا يصدر عنه صوت ، لسانه العريض الأحمر
المحبب ، مدلى من فمه ، مبرد حتى مشعون بطاقته ،
ساقط من تحت الأنف الضخم المفلطح ، أقدامه ثابتة
ليئة على الأسفلت الأسود ، جبهته المرقطة مدورة ،
هابطة ، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه ، كأنه نصف
مغمض ، مرهق من السفر ، هادئ يعرف سيطرته ،

ينتظر بثقة لحظته ، وكأنما تخلخل الهواء من حواليه ،
وفرغ ، وملائته شحنة جديدة غير مرتبسة من القوة
والتهديد .

وأجس صدره يضيق . ألم غير مستبين لكن موجع
ومضغط يقبض على عظام ضلوعه ، بنخلة لكن من غير
أن يفلته ، ويتهدد ، وتتركز له نقط حادة في مكان
قلبه .

مازال يخب في فسحة الميدان الواسع ، قادما اليه ،
شامخا في كيانه البطيء الناسى بنوع من الرشاقة المهتزة
الثقيلة ، ينظر من عل الى الامام ، في غير مبالاة .

سمع صوت الهرير العميق الأجوف الخشن ، يتردد
ويتضخم ، وان كان مازال في طبقة تحتية مدفونة ،
ويملأ سكون الميدان الذي تتناوش صمته أصدااء خافتة
من نفير سيارات وصلصلة ترام بعيدة ، وحفيف
النافورة .

سوف يثب الآن ، وينقض عليه بمخالبه المشرعة
الثاقبة الممزعة ، وسوف تسقط كتلته المدمرة بهجوم
مندفع لا يوقفه شيء ، بحيوية خاطفة لا راد عليها ،
وينطلق الزئير في نشوة الهجوم ، وتنشب الأنياب
المدببة في العنق الطويل . سوف يختلط الخوار المفزع
الشاكى الأجش ، بزمجرة النهش والتمزيق المتقطرة
دما . ويسقط الجرم الشاهق على الأسفلت ، تحت دفعة

الوثبة المنقضة عليه • ولكن تتشبه به ، لا تفلته ،
السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاياتها العظمية
النافذة الى مخايب الحياة بحساسيتها النابضة الخافية
التي لا منعة فيها •

سوف تصطدم السيقان والأذرع والضلوع ،
وتصطرح الأجسام ، وترطم أعمدة العظام ، بلا عقل ،
فى شراهة الخطف والهيش ، فى التطام التخبط
والتصادم ، فى تصميم الكسر والهضم ، بين تهشم
حجارة الحياة المنقوضة ، وضجيج الأحشاء المكنونة
مكشوفة فجأة للنور القاتل ، بين صرخة النصر وحشرة
التشبث بالهواء الواهب للحياة •

كان ينهج ، وهو يصطدم بالناس ، ويهتفون به ،
يمرق بين السيارات وعربات الكارو المتراخمة ،
وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة ، ويهبط سلالم
متربة بين جدران ضيقة متربة ، وتصفر خلفه عساكر
المرور ، وتنحرف الدراجات عنه وهى تقرع أجراسها
دون توقف ، ويتراجع الناس أمامه وهم يشيرون بأيديهم
ويزعقون به •

كان قد رآه • التقى به ، وحده • وفى قلب الميدان •
وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث • ما يحدث
بالفعل • وهو أيضا لن يقول لأحد أبدا •

لكنه عرف أيضا ماذا عليه أن يفعل ، منذ الآن •

عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل ، هل يستطيعه ؟
هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العيينين
العاقلتين الشرستين ؟

كيف وصل الى الغورية ؟ لم يكن في ذهنه الا صور
مضايقة خاطفة من التراموايات والناس ، من الزحمة
والعربات ، في مطاردة افلت مع قبضاتها المفاجئة
المتهددة ، من صرخاتها وعجلاتها القاسية . أنفاسه
تقتلع من صدره اقتلاعا . لن تعود ساقاه ، بعد قليل ،
تقويان على احتماله والاندفاع به ، جريا . الارض
تشدهما اليهما ، وصدره شق ضيق جارح . لكن ذهنه
هادئ ، في بؤرة ثابتة من حرارة ساطعة ، يمد عدته
لصراع لا يعرف أين يحدث ، ولا كيف يخرج منه ، ولكنه
يعرف انه سيذهب اليه طائعا . أو يرغمه ، ويخور
قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه ، لا يسلم أبدا بها ،
ولكنه يعرف انها محتسومة وضرورية ، أيا كانت .
ويعرف أنه ، طائعا أو برغمه ، سيخوض غمرته .

العينان القاسيتان تنظران اليه ، من عمق شفاف
أجنبي عنه ، مازالتا معاديتين . ولا رد عنده .

كان مسندا ظهره الى الكرسي غير المريح ، يرفع
رأسه الى الحائط القديم ، وضلف الشبايبك السوداء .
كان الحمام يدخل ويخرج ، برشاقة بطيئة هادئة ، من
أقفاص الجريد التي تحيط بها أوراق اللبلاب ، فوق
جدار القهوة البلدى . وقد صفت الكراسى فى مفرق

الطرق على الأرض المفروشة بالرمل المبلول • وقدة
الظهر قد خففتها الظلال المتراوحة على تعريشة العنب
الممدودة ، سقفا أخضر مثقوبا فى أرابيسك غير منتظم ،
فوق الشارع ، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار •
وجاء الصبى بابريق الشاى المعتدنى الضفير الأزرق
المدور ، لم يعد يرى مثل هذا الابريق كثيرا • يذكره
من طفولته • كان ابريقه هو ، لا أحد آخر يشرب منه
الشاى • شاى طازة جديد ، وكوب سخن ثلثه ماء سخن ،
ومعلقة صفيح غارقة فيه ، وسكر فى منفضة سجاير
زجاجية مضلعة • هذه قهوة نظيفة ، معتنى بها ، حسنة
الاضاءة •

— أهلا وسهلا • شرفت المطرح يا فندى •

— أهلا بك • الله يشرف مقدارك •

— نورت الغورية •

— منورة ببيكم وبالجدةان •

— رايح القلعة ان شاء الله ؟ خان الخليلي ؟

— أبدا والله • مشاغل •

— ربنا يعين •

— سمعت الأخبار ؟ ماذا حدث فى الميدان ؟

— هل حدث شيء فى الميدان ؟

— أنا أسالك ماذا حدث فى الميدان ؟

— ماذا تريد أن يحدث فى الميدان ؟

— الساعة عشرة الصبح ؟

— ماذا يمكن أن نفعل ؟ لابد أن يمر الواحد من

الميدان ، فى الصبح أو المساء •

كان الرجل يستمع الى الحديث • وقف على الناحية القريبة ، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة ، يديره فى الكوب ليظهره — أليس هذا هو المفروض أن يفعل ؟

وعندما ألقى بالماء بعيدا عنه الى الأرض المفروشة بالرمل ، كان الرجل ينظر اليه ، دون ابتسام ، عارفا • وجهه الداكن مغلّق ، عيناه مدفونتان ، ليس فيهما مكان للرحمة • عظامه متينة ، فيما يلوح ، تحت القميص الرمادى المفتوح خارج الينطلون الأسود المكوى • فمه المكتنز ، بشفتيه السوداوين تقريبا ، الشهوانيتين ، كأنه على وشك الابتسام • لم يبتسم •

— هل حدث شيء ؟

— كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل •

— اتفضل الشاى •

— آه • الشاى • الشاى هنا عظيم •

— أصيب أحد ؟

— لماذا ؟

— فى الميدان •

— الانسان دائما مصاب •

— لا • لا • أبدا •

سقط نور الشمس ، مخففا ، من بين أغصان
التعريشة ، على الوجه الداكن • هل هى ابتسامة ؟ أم
لعب الضوء بعينيهِ ؟ رشف من الشاي ، مازال ساخنا ،
وضع الكوب ، على رخامة المائدة المدورة ، ببطء •

ولم يرفع بصره من الأرض •

على الرمل المبلول المسوى ، واضحة ، قاطمة
الوضوح ، آثار أقدام أربعة ، مفلطحة ، غاصت فى
لدونة الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض ، تنتهى كل
قدم بغرز عميقة فى الأرض ، مدببة الغور • المخالب
المقوسة ، على بعد خطوتين من عينيهِ •

وظلال الأوراق ترتعش بين استدارات الضوء
الصغيرة المهتزة • جاءت أصوات خبط ودق معدنى
بعيد — دكان سباك ، أو ميكانيكى سيارات ، سروجى
على الأرجح ، لابد انه سروجى سيارات ، السروجية
لا تحتاج مهنتهم الى خبط ودق ، مبيض نحاس ، نعم ،
أو صانع ، ربما ، أو بيع البسبوسة تحت المئذنة
العتيقة ، أمام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعة
العطب جنب أحجار الجامع السوداء الألفية • وارتفع
زقار ديك ، طويل فى همود الظهر المبهم ، ينادى الفجر •

وتكرر صياح الديك فى السكون ، مرة أخرى، ومرة •
لم يرد عليه نداء آخر • وحشة هذا النداء لا تطاق •
كل شيء يغمره سلام • وصمت • القهوجى على النصبه ،
فى الداخل المعتم الرطيب ، يفسل الأكواب ويضع
الصواني الصفراء التى تقطر ماء يعضها فوق البعض
لها قرقة نحاسية مكتومة الصدى ، مبتورة •

— حصل لنا الشرف •

— الله يشرف مقدارك •

— من الناحية ؟

— أبدا والله • مررت من هنا مجرد مرور •

— قلت تأخذ شاي ؟

— شاي عظيم •

— أهلا وسهلا •

— تقول حدث شيء ؟

— أي شيء ؟

— أبدا • مجرد سؤال •

— حصل خير •

كان يصعد الى الحارة من سلالم ضيقة حجرية
متهدمة ، ملبدة بطبقة قديمة من التراب • وجر قدميه

فى بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض .
ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة ، تكاد تسقط
من بين أحجار مكومة فى دور علوى مهذود . وعبر أمام
بقال مظلم مدفون تنزل اليه سلمة الى الداخل ، وأمامه
صندوق الكوكولا أحمر مقشر الطلاء .

وصمتت النساء لحظة ، وهو يمر ، جالسات على
العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح
ممدود ، فى قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة .
ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه ، من حلة كبيرة .
وجه امرأة ، كأنها طفلة ، لكته نسائى ، معايب ،
غض ، ساخر ، مشعث الشعر تحت المدورة التى تنتهى
بكريات صغيرة مهتزة ملونة .

ولد يقمى فى وسط الحارة ، فى طريق الذاهبين
الآيبين ، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه ،
واستغرقه الجهد المستحوذ الذى تركز فيه كل جسمه ،
باستمتاع ، ورفع اليه عينين مستطلعتين ، غائبتين ،
وجهه محتقن بالدم والجهد المريح . وذار حول الخرابة
الفائرة الأرض ، من وراء كوم تراب عال هبت عليه
منه رائحة العطن والبراز والصفيح الصديد والأرض
التي ينتقع فيها الماء على مهل . هذه بيوت قديمة .
وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة ، قد أخذت
منذ الآن ترث وتتشقق شقوقا رفيعة متعرجة سوداء .
أين يجده ؟ كيف يمكن أن يجده ؟ قال له انه فى

كل مكان ، فى الميدان ، فى حوارى الحلمية ، فى شوارع
شبرا ، تحت المتحف الزراعى ، قال له فى ساحات مصر
الجديدة ، وفى الصاغة ، فى أغوار النورية ، نعم جنب
الجيزة ، فى جنينة الحيوانات ، أيضا ، مقفلا عليه
داخل القفص وخارجه ، أيضا ، قال له عند الساعة فى
سليمان باشا ، وعند السفارات فى العجوزة ، والزمالك
وفى الأزهر ، قرب قراية الامام ، وعلى العلو فى
المباسية ، قال له فى كل مكان - الناس لا يعرفون ،
خطوهم بخطوهم ، رجله على رجلهم ، أنفاسه فى صدورهم
الشريسة ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة - لا تفهم ؟
قال له انه يدخل الشارع - كل شارع - بأقدام واثقة
تعرف انها تملك الشارع ، كل شارع - قال له بأعين
حنون قايضة ، تحتضن الناس ، ساقاه الأماميتان
عليهما شعر ناعم وملبد تفوح منه رائحة الحيوان
الوحشى الحريفة الزاعقة ، شممتها ، قال له ، أنفاسه
زخمة بخرا ، ولكنك ، تعرف ، تحبها ، وتنشقها
وتجد فيها طعما تريده ، قال له تجد الإثلاء فيما بعد ،
مرمية على التراب ، وعلى الأسفلت ، يرفعها عساكر
المرور ويضعونها على الرصيف ، كلقمة عيش ،
ويغطونها بورقتين مفرودتين من « الأهرام » ، أو
« الأخبار » ، قال له الناس تلقى بصفيحة ماء على الدم
الذى يسود لونه سريعا ، أو يرشونه بقليل من الرمل أو
التراب ، وعجلات السيارات على أى حال سرعان ما تمحو
كل أثر ، قال له إن قطبنا صغيرة ملوثة من ملايس

الأطفال ، ممزقة ، يطير بها الهواء أحيانا ، ويلفها الناس ويرمونها على جنب وتضيع ، بين قشر الترمس واللب وورق كراسات التلاميذ الممزق ، قال له ينسل من تحت البوابات العتيقة ، بين دكاكين الأحذية ، وشوالات العطارين التي تنفث رائحة التوابل والبهارات ، يحتك بأكوام الذرة المغلفة بخضرتها ، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوى من صدمة جسمه بها ، على شط النيل ، بين المتنزهين والجالسين على العشب الناصل ، قال له الناس لا تسرع ولا تجرى ولا شيء ، قال له صرير صدره ، وزحيره ، يتردد أحيانا ، كأنه من الداخل ، حيث لا يوجد فى الشارع الا ضجيج المرور ، كيرير أجوف يتذبذب داخل اسطوانة القفص الصدرى الوثيق ، ويلتفتون فلا يرون شيئا ، هريير عميق به حشيرة طبيعية منتظمة ، ثابتة الايقاع ، قال له ضربة واحدة تجعل الرأس المبتور ، فاغرا عينيه ، ضامتا ، يسقط بصدمة مكتومة على أرض الشارع ، وتتحاشاه السيارات قليلا وتنفث الحميم التي تيجر عربات الكارو ، فى رعب مفاجأ ، ثم تشتد الزحمة من جديد ، وتغلق الثغرة فى المرور ، ولا يدرى أحد ، ولا يهتم أحد حقا ما اذا كانت القرقة الخفيفة الوزن ، التافهة فى عراء الشوارع وصخبها ، جاءت من العظام المتشعبة ، أو من قرقة غازات العادم فى السيارات ، أو من خبط الأبواب التي تصططق ، قال له أحيانا يجد الأولاد على الرصيف ، أسنانا منزوعة عليها تراب قليل ، فينظفونها ويلعبون

بها شمس يا شمس ، خبدي سن الحبار وهاتي سن
 العروسة ، يا شمس يا شمس ، خبدي سن العريس
 وهاتي سن الجاموسة ، قال له زمجرته أحيانا ترتفع في
 وسط النهار ، توقف كل شيء ، في دائرة ضيقة ، لحظة
 من زمن ، وتخرس كل شيء ، ويتكرر الزئير المحتشد
 بالخوف والتهديد معا ، ولا ينظر الناس الى بعضهم
 البعض ، ينصتون لحظة ، برغمهم كأنهم لا يصدقون ،
 الى الصوت المفزع المروع معا ، ترتطم أصداؤه ، في
 لحظة الصمت والانتكار ، بين الجدران والنوافذ ولوحات
 الاعلانات ، في قلب الميادين ، أو في السكك المسدودة ،
 وتسمع أحيانا أصوات الضلف والأبواب الحديدية أمام
 الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة ، وأبواب الشرفات
 تصطفق ، ولكنه بعد ذلك يعود فينس ، بخطواته التي
 لا صوت لها ، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل ،
 تتموج أشعة جسمه ، بقوة ومعرفة ، وسط الناس
 الذين يعبرون إشارة المرور ، لا ينظرون اليه ،
 ولا يرونه أيضا ، يثب ، في خفة ، بين أنوار الأتوبيسات
 الجمرء المتربة ، تنحرف له قليلا ، وتبطيء ، لتتيح له
 أن يعايشها ، مرحا ، شعبان ، قال له خشنخشة مخالفه
 تسمع أحيانا ، في الليل ، على أبواب الشقق النائمة ،
 ويستيقظ رب البيت ، فجأة على الصوت ، ويظن انه
 يحلم ، ويرفع رأسه قليلا من المخذة ، ويحبس أنفاسه ،
 ينصت ويترقب ، قال له انه يعرف ، انه يعرف • قال
 له صحيح •

فى كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق
الأخير ، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة ،
فى حنائها المصمم الخام ، قاسية تؤدى واجيبا لذلك
قسوتها ضرورية ، تمسكه بمخدرات الاقدام الناعمة
المفلطحة ، مخالبا الحادة مغمدة فى جرايها ، وتفمره
الرائحة الحيوانية الزخمة التى لا فرار منها ، الرائحة
الخصيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب الى الخارج
عصاراته الطازجة فى أول لحظات الفساد الأخير ،
ويلصق جسمه ، فى قبضة كاملة الاحاطة ، بعضلات
الصدر المريض ، ترحر فيه أنفاس متضخمة الايقاع ،
هادئة ، ويرتفع الكريز الاجش يملأ العالم ، وتسطع
الرائحة الملبدة الشقيلة تسد كل شئ ، للمرة الأخيرة ،
فى حزن يضغط تلك الضبطة الرحيمة المهشمة النهائية
التي يظلم فيها كل شئ .

ومواكب الناس تمر به ، فى باب الحديد ، كل الى
وجهته ، فى وحدتهم واندماجهم معا ، ماذا يفعلون ؟
هذه الوجوه التى لكم ، منحوتة ، مضلعة ، منبعجة
ومضغوطة ، عرتها الوحشة والقسوة وجففتها ، شققها
المرق وخط فيها الألم والشبق أخايد لا تمحى ، هبت
عليها وفتنتها أعاصير الشهوات والآمال الأمرة ،
وانهاكات التحقق والاحباط معا ، كلها لا تفى بشئ
وتترك الجوع متقددا لا ينطفىء ، عطشانة دائما ،
ويايسة ، ذابلة ، متطاولة ، مسحوفة غضة ، متهدلة ،
مشدودة فى ايناع الصبا ، فتوة النضج ، اشراق خاطفة

يتمتلىء بعدها باللحم المتلحظ وتنفس بالتجشؤ العفن ،
هذه العيون المطاردة ، والمختبئة ، والمتربصة والمقتحمة ،
والجامدة • أرواح محبوسة في حفر قبورها ، تتسواثب
وتخمش وتنبج وتزأر وتكركر بضحك الضباع ، من غير
صوت • أرواح تنادى ، بصوت مكتوم • تنويمات
شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر
الجسم الذى يتحات ويسقط عنه فتات الحجر ، لتترك
مسوخ النقوش المعراة ، طبقة بعد طبقة • ماذا يفعلون ؟
الى أين يذهبون ؟

الوحش الذى يسكن قاع قلبى ترتفع به مياه حب
غير مفهوم وغير مطلوب ، ثم تتهدم الأمواج • قال له إن
المركب لا بد أن يسير • أين سفينتى ؟ قال له إن الصيف
جاء مبكرا هذا العام واتنا بالليل سنعود الى بيوتنا ،
وننام • قال له ماذا تريد أن يحدث ، كلنا لا بد أن نمر
من الميدان •

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو ، دخل الممر
الضيق ، بين الحيطان المرتفعة المعتمة • أوراق الشارع
ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت فى كومة
صغيرة غير منتظمة ، جنب الزحيف ، على البلاط المغبر
القديم • ومر يدهنه أنه لم ينزل قط ، ولم يصعد قط ،
مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التى تدور وتدور
مرتفعة الى ظلمة فوقية غامضة ، الى سطوح حادة لا منفذ
فيها ، فى المغرب البرونزى الصديء القاتم الخضرة •

كانت قدماء ، من التعب والغياب ، تختطان به طريقا غير مستقيم . واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة فى أكوام قلقية حرجة تهدد بالانهيار . وكانت الدكك الخشبية على الأبواب ، فارغة لا يجلس عليها أحد ، لامعة مصقولة مجوفة فى وسطها قليلا من طول جلسة أجيال متعاقبة من البوابين المنسيين .

كانت تجلس على الأرض ، ترضع ابنها ، صعيدية ، سوداء ، مجمدة وجافة ، تنحنى عليه بلا اهتمام ، فى حركة حنان لا يطاق ، لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء ، ثدى صغير داكن متهدل ، مشقق بالفضون الدابلة ، وطرى مع ذلك يحمل عصارتها ، حقيبة لحمية ملأنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة ، أنثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية ، من طول تعرية لشمس صراخ لا راحة فيه ، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة ، ويأس الاقتراب والابتعاد ، بلا نهاية ، من الاشتباخ الذى يعد وينكث وعده ، وينسى ويعود ، فى تكرار فقد كل نضارة وكل جدة . يرتفع بجانبها قفص جريد انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه ، متخاذلة ومصلوبة فى رقتها ، لا تتهاوى ، مفروشة عليه بضع صحف يومية ، وكتاب « الشعب » بعناوين كوفية وصورة مئذنة سامقة ، اصفرت جلده وتلوت أطرافها من الهواء السخن . وجهها الاسود المتهضم مضى بصبر آخر ،

والولد على حجرها ، مضغة تبدو لا أهمية لها ، يتشبث ،
سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل ، يدفع بساقيه
وقدميه •

أقول لك سيدتى ، حبيبى ، أمى • سنخف هوش مثير
للمضحك • أقول لك اننى أعتذر ، اننى آسف ، وحزين •
عبث • لست أقول لك شيئا ، ولا أستطيع • ما أرخص
هذه الدموع التى لا تريد - مع ذلك - أن تنسكب •
لست أعرفك ، يا أمى ، لا شأن لك بى ، لا شيء يصل
بيننا ، كل دعوى أخرى باطلة • قال له الوحش سقينة
تبحر بنا فى مياه مجهولة • والعالم وحش ، والألم •
ولا هذا أيضا • لا •

كان يمشى ، فى آخر نور المساء ، فى طريقه
الخاوى الذى تحيط به الأشجار ، لا ينتهى ، موحشا ،
ليس فيه شيء ، على الرصيف وتحت برك جافة من الحبوب
الصفراء الدقيقة التى تسقط من أشجار الكازورينا
فى الصيف ، يهب بها هواء أول الليل فتطير وتحط على
أسفلت الطريق • مصابيح الشارع مضيئة زرقاء فى
ضوء السماء الأخير ، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى
فيه ، وهو يسير ، نائما مغمض العينين ، فى ارهاق كامل
وصل به الى حدود الحلم ، فى غيبة لا يوجد فيها
الا جسمه ، وحش مهدود ، يمضى دون ارادة ، دون
مخالب ، دون عقبة ، دون وصول ، بلا انتهاء • يحس
السيارات تمرق من على جانبيه ، فى حلمه ، صامتة ،

أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها ، يحس الناس على
الرصيف غرباء ، واخوة يأمن لهم ظلالات قاتمة في نور
وعيه الداخلي الخافت ، عاكفين على طريقهم ، دون توقف ،
ودون اسراع .
نداء يهتف به :

• • ادوار • • ادوار • •

الصوت في هدوء الشارع يأتيه في حلم فسيح
معتم ، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة ، يرتطم ،
ماؤها بالحجر الصلب القديم ، ويسقط .
أهو نداء باسمه في الليل ؟ لا ، ليس هو . اسمه
غريب عنه ، ما صلته به ؟ والصوت غريب .

ودون أن يفتح عينيه ، كان يبدو له أن البيت بعيد

الاسكندرية

١١ سبتمبر ١٩٦٩

فهرس

٥	مقدمة
٣٧	تحت الجامع
٥٩	الأميرة والحصان
٨٧	آخر السكة
١١٧	جرح مفتوح
١٣٧	البرج القديم
١٧٥	فى الشوارع

صدر من هذه السلسلة :

١	فتحي غانم	(قصص)	● الرجل المناسب
٢	عبد الرحمن فهمي	(قصص)	● دموع رجل تائه
٣	أبو المعالي أبو النجا	(قصص)	● الجميع يريدون العائزة
٤	بهاء طاهر	(قصص)	● بالأس حلفت بك
٥	شكري عياد	(قصص)	● رباعيات
٦	عبد الغفار مكاوي	(مسرحيات)	● من قتل الطفل
٧	جمال الخيطاني	(قصص)	● منتصف ليل الغربة
٨	محمد الخزنجي	(القاصيص)	● رشق السكين
٩	فاروق خورشيد	(قصص)	● وعلى الأرض السلام
١٠	عبد الحكيم قاسم	(رواية)	● الأشواق والأسى
١١	جميل عطية إبراهيم	(رواية)	● والبحر ليس بهلان
١٢	سحر توفيق	(قصص)	● إن تنحدر الشمس
١٣	سعد مكاوي	(رواية)	● لا تسقني وحدي
١٤	شكري عياد	(قصص)	● كهف الاختيار
١٥	ادوار الخراط	(قصص)	● محطة السكة الحديد
١٦	محمد إبراهيم أبو سنة	(م شعرية)	● حصار القلعة
١٧	يعقوب حقي	(قصص)	● سارق الكحل
١٨	محمود عبد الرحمن	(قصص)	● أربعة فصول شتاء
١٩	بهاء طاهر	(قصص)	● أنا الملك جئت
٢٠	عبد الرحمن فهمي	(قصص)	● تاريخ حياة صلم
٢١	عبد جبير	(قصص)	● الوداع : تاج من المشب
٢٢	محمود الورداني	(القاصيص)	● النجوم العالية
٢٣	عبد الرحمن الشرقاوي	(رواية)	● قلوب خالية
٢٤	إبراهيم عبد المجيد	(قصص)	● الشجرة والصافي
٢٥	سليمان فياض	(قصص)	● عطشان يا صبايا
٢٦	عبد الحكيم قاسم	(رواية)	● طرف من خبر الآخرة
٢٧	جار النبي الحلوي	(قصص)	● طعم القرنفل
٢٨	شفيق مكار	(رواية)	● السحر الأسود

٢٩	حسنى عبد الفضيل	(رواية)	● تسلق الجدار الأملس
٣٠	محمد النسي قنديل	(قصص)	● احتضار قط عجوز
٣١	عبد الله خيرت	(قصص)	● رحلة الليل
٣٢	عالية مصلوح	(رواية)	● حبات التفاتين
٣٣	محمود دياب	(مسرحية)	● أرض لا تثبت الزهور
٣٤	عبد الفتاح الجمل	(قصص)	● الخسوف
٣٥	مظفوف عبد الرحمن	(مسرحيتان)	● ما أجملنا
٣٦	يوسف القعيد	(قصص)	● لم يعد الضحك ممكنا
٣٧	فاروق خورشيد	(قصص)	● جبال السام
٣٨	أحمد الشيخ	(قصص)	● الحنان الصيفي
٣٩	إبراهيم أصلان	(قصص)	● يوسف والرفاء
٤٠	يحيى عبد الله	(مسرحية)	● مسالة البنتين
٤١	يوسف أبو رية	(قصص)	● عكس الريح
٤٢	محمد جبريل	(قصص)	● هل
٤٣	نعمان عاشور	(مسرحية)	● غاريت الجبالة
٤٤	عائد خصباك	(قصص)	● الطائر والنهر
٤٥	علاء الديب	(رواية)	● زهر الليمون
٤٦	أمين ريان	(قصص)	● الطواحين
٤٧	سامي فريد	(رواية)	● رائحة البحر
٤٨	عاطف القمري	(مسرحية)	● حضرة صاحب الدولة
٤٩	خيري شلبي	(قصص)	● أسباب للكي بالنار
٥٠	بدر الديب	(قصص شعري)	● السنين والطلسم
٥١	عبد الحكيم قاسم	(رواية)	● أيام الانسان السبعة
٥٢	محمد زفزاف	(قصص)	● الملائكة الأبيض
٥٣	محمد البساطي	(قصص)	● هذا ما كان
٥٤	جبرا إبراهيم جبرا	(رواية)	● الغرف الأخرى
٥٥	طلعت فهمي	(قصص)	● أغنية حب حزينة
٥٦	ربيع الصبروت	(قصص)	● انكسار الحروف
٥٧	عبد الوهاب الأسواني	(رواية)	● أخبار الدراويش
٥٨	فتحي عبد الفتاح	(قصص)	● النيل والغضب
٥٩	نهاد شريف	(رواية)	● الشيء

٦٠	عبد العزيز يشرى	(رواية)	● القيوم ومنابت الشجر
٦١	لدؤاد التكرلى	(مسرحيات)	● الصغرة والطوف
٦٢	نعيم عطية	(قصص)	● نورسات أبيضان
٦٣	سعيد الكفراوى	(قصص)	● ستر العورة
٦٤	محمد سليمان	(قصص)	● الوجه الآخر للقمر
٦٥	محمد المغزنجى	(قصص)	● سفر
٦٦	سليمان الشطى	(قصص)	● رجال من الرف العالي
٦٧	رضوان عاشور	(قصص)	● رأيت النخل
٦٨	ليلى العثمان	(قصص)	● ليلة حب مجنونة
٦٩	بدر الديب	(القصص الكلتيك)	● المستحيل والقيمة (تجربة فى الكلتيك)
٧٠	توفيق الحكيم	(مسرحية)	● النعيم العالم
٧١	محمد عبد السلام العمري	(قصص)	● شمس يفسد
٧٢	عبد الحكيم قاسم	(قصص)	● ديوان الملحقات
٧٣	أحمد زغلول الشيطى	(قصص)	● شتاء داخل
٧٤	وجيه الشربل	(رواية)	● حكاية شارعنا
٧٥	فهد العتيق	(قصص)	● أذعان صغير
٧٦	محمد البساطى	(قصص)	● منحنى النهر
٧٧	إبراهيم فهمى	(قصص)	● المشق أوله القرى
٧٨	إبراهيم عبد المجيد	(قصص)	● اغلاق النوافذ
٧٩	هالة البدرى	(قصص)	● أجنة الصنان
٨٠	يوسف أبو رية	(قصص)	● وش الفجر
٨١	ممدوح عدوان	(مسرحية)	● حكى القرايا وحكى السرايا
٨٢	جمال الفيغانى	(قصص)	● من دفتر المشق والغربة
٨٣	أحمد التشيخ	(قصص)	● البحر الرمادى
٨٤	محمد عبد السلام العمري	(قصص)	● بستان الأزيكية
٨٥	خيري شلبي	(رواية)	● لحسن العتب
٨٦	جميل عطية إبراهيم	(قصص)	● أحاديث جانبية
٨٧	أبو العلا سلامونى	(مسرحية)	● رجل فى القلعة
٨٨	سعيد الكفراوى	(قصص)	● مجرى السيون
٨٩	ليلى الشربل	(قصص)	● الكرو
٩٠	أدوارد الخراط	(قصص)	● ساعات الكبرياء

الأعداد القادمة :

● سلوى	(مسرحية)	محمد سلماوى
● غزو الأرناب	(قصص)	نبيل عبد الحميد
● قراءة فى جريدة الصباح	(قصص)	محمد سليمان
● اصلاح الصحراء	(رواية)	ادوار الخراط
● طقوس بشرية	(قصص)	رضا البهات
● شعر الابلال والكبرياء	(قصص)	محمد عبد الرحمن المر
● صندوق الدنيا	(قصص)	فؤاد قنديل
● العودة من داخل الرأس	(قصص)	عبد الفتاح طزق
● خد الجميل	(رواية)	يوسف القعيد
● عنترة فارس هذا الزمان		
● قبلة الريح	(مسرحية شعرية)	أحمد سويلم
	(رواية)	نعيم عطية

الأعداد الممتازة القادمة

● المذبذبون فى الأرض	(رواية)	طه حسين
● قنطرة الذى كفر	(رواية)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● ابراهيم الثانى	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● نائب عزرائيل	(رواية)	يوسف السباعى
● فساد الأمكنة	(رواية)	هبرى موسى
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف ادريس
● الجبل	(رواية)	فتحى غانم
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف الشارونى
● أغنية الرياح الأربع	(د. شعرية)	على محمود طه
● بحيرة الساء	(قصص)	ابراهيم أصلان

تطلب كتب هذه السلسلة من :

- باعة الصحف ● مكتبات الهيئة
- المعرض الدائم للكتاب
- معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
- مكتبات الهيئة المنتقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٧٦٣

ISBN — 977 — 01 — 4000 — 7

ان إبطال الكاتب جميعاً في قصص «ساعات الكبرياء» ينتهون إلى لحظة هذا الوجه المنحوت الذي فقد القدرة على الخلاص بعد أن هبط الليل ومرت السفينة «الوحش» التي كانت تحمل مع الموت والافتراس والاحباط امكانيات الخلاص والتفتح والخلود. وقد نستطيع ان نتابع هذه النهاية الموحدة في القصص جميعاً إذا عدنا لمناقشة «الساعات» كمجموعة متكاملة، ولكننا نجد هنا صورة مجردة ورمزية معاً لهذه النهاية مصاغة في الخطبة التي يوجهها الكاتب للناس بعد نزوله من قمة الرؤية. غير أن خطابه الذي يوجهه مباشرة «لكم» تمر به المواكب «أرواح محبوسة في حفر قبورها» ولا تستطيع الرؤية أو الخطاب ان تجعل الناس يتوقفون أو يتكلمون أو يقاومون، ويبقى السؤال:

«ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟» انهم جميعاً «أرواح تنادى بصوت مكتوم تنويعات شائهة على اصل بسيط وجليل قائم عند اساس صخر الجسم الذي ينحت ويسقط منه فتات الحجر لتترك مسوخ النقوش المعراة، طبقة بعد طبقة».

ولست أرى أوضح من هذه السطور لصياغة التنويعات التي قدمها الفنان في «الساعات» على «اصل وجليل قائم عند اساس صخر الجسم». فهو دائماً في قد يبدأ منه ويعتمد عليه ويراه دائماً وهو يتعري مع الحياة والمجتمع حتى يصبح مسخاً ونقوشاً معراة.